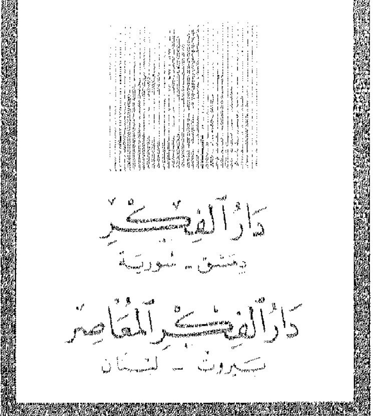



أحمد نصيب المحاميد

# الحب
## بين العبد والرب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحب
بين العبد والرب

أحمد نصيب المحاميد

# الحب

## بين العبد والرب

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي : ٥٢٤
الرقم الموضوعي : ٢١٠
الموضوع : دراسات إسلامية
العنوان : الحب بين العبد والرب
التأليف : أحمد نصيب المحاميد
الصف التصويري : دار الفكر بدمشق
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية بدمشق
عدد الصفحات : ٢٣٢
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم
عدد النسخ : ٢٠٠٠

تصوير : ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م
عن ط ٣ ١٩٩١ م
ط ١ ١٤٠١ = ١٩٨٠ م



دار الفكر بدمشق
سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز
الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً : فكر - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢٢٣٩٧١٧ ، ٢٢١١١٦٦
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
تلكس FKR 411745 Sy

# المقدّمة

## بسم الله الرّحمن الرّحيم

أحمدك ربي حمداً كثيراً خالداً مع خلودك ، وأحمدك ربي حمداً لا منتهى له دون علمك ، وأحمدك ربي حمداً لا منتهى له دون مشيئتك ، وأحمدك ربي حمداً لا أجر لقائله إلاّ رضاك .

اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المستعان ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلاّ بك .

اللهم إني أعوذ بك أن أزِلّ أو أضِلّ ، أو أظْلِم أو أُظْلَم ، أو أجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليّ .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ماتبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ماتُهوّن علينا به مصائب الدنيا ، ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ماأحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .

اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر .

اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ، ونعيماً لا ينفد ، ومرافقة نبيّك ﷺ في أعلى درجة الجنة ، جنة الخلد .

اللهم إني أسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك .

اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم . وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد .

اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد ، عبد ورسولك ، إمام الخير ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً محموداً ، يغبطه به الأولون والآخرون .

وبعد فقد تضافرت الأدلة ، التي لا تقبل الشك ، على محبة الله لعباده ؛ تفضلاً وكرماً ، وعلى وجوب محبة العباد لربهم ؛ تقرباً وطاعة[1] . كما تضافرت الأدلة على وجوب محبة الرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، ومحبة آل بيته . كما جاءت الأدلة بمحبة المؤمنين ، بعضهم لبعض ، وأنهم بهذه المحبة ، ينالون درجات عالية عند الله عز وجل .

## الباعث على هذا التأليف

والذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع ، وإلى شيء من التوسع فيه ؛ ما وقع من المطاعن التي وجهت إلى الإسلام ، من أنه دينٌ جافٍ يخلو من الحب بين الله والعباد ، وأن صلة المسلمين بربهم هي صلة إذعانٍ لإرادة الله وقهرٍ ، لا صلةُ قداسةٍ وحبّ .

(١) وقد ثبتت محبة النبي ﷺ لأمته ، وحرصه على إسعادهم في الدنيا والآخرة .

ولا شك أن الذين يقولون هذا هم أصحاب نية سيئة ، وجهل بتعاليم هذا الدين الحنيف . فلفظ ( الحب ) تردد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة[1] ، على أساليب مختلفة ؛ منها : ما هو بجانب الرب سبحانه لعباده ، ومنها : ما هو بجانب العباد للرب ، ومنها : ما يشير إلى محبة الرسول ﷺ ، ومنها : ما يرشد إلى محبة الناس بعضهم بعضاً .

فهؤلاء ، الذين يزعمون أن بين المسلم وربه جفوة وبعداً ؛ لا شك أنهم أعداء الإسلام والمسلمين ، يريدون بذلك أن يُشككوا المسلمين بربهم ، وبدينهم ، وعقيدتهم ، والواقع يكذبهم ، ويدحض افتراءاتهم على الإسلام وأهله .

فالرب سبحانه حذّر عباده في نص كتابه من إساءة الظن به ، ودعاهم إلى التفاؤل وظن الخير ، ونهاهم عن القنوط من رحمته ، وأخبرهم بأنه ذو فضل كبير ، ورحمة واسعة .

قال تعالى : ﴿ ... الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِم دائرةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَعَنَهُمْ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَساءَتْ مَصيراً ﴾[2] . وقال تعالى في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء ، إنْ ظن خيراً فله ، وإنْ ظن شراً فله »[3] . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظنّ بربه »[4] .

وللبيهقي ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، بلفظ : « أمر الله عز وجل بعبدين

---

(١) كما سيأتي .

(٢) الفتح ٤٨/٦

(٣) مسند الإمام أحمد ، والشيخان بلفظ آخر .

(٤) ابن ماجه .

إلى النار ، فلما وقف أحدهما على شفتها ، التفت فقال : أما والله إني كان ظني بك لَحَسَنٌ ، فقال الله عز وجل : رُدّوه ، فأنا عند ظنك بي ، فغفر له » .

أمامَ هذه البشائر المفرحة في عظيم رحمة الله وسعتها ، لا يكون من المؤمن إلاّ الاطمئنان والانشراح ، وزيادة الحب لله رب العالمين . لذا قال بلال لأهله الذين جزعوا عند موته : لا تجزعوا ، غداً نلقى الأحبة ، محمداً وحزبه .

وأوصى بعضهم عند وفاته أن يهنئوه في قدومه على ربه الكريم ، وقال منشداً :

إذا ما صار فرشي من تراب وبِتُّ مُجاوِرَ الربّ الرّحيم
فهنوني أصيحابي وقولوا: لك البشرى، قدمتَ على كريم

أتراه في وصيته هذه خائفاً قلقاً ؟ أم هو راغب في لقاء ربه ، مغتبط في القدوم عليه ، لاعتقاده أنّ ربه عفو كريم ، لا يكون منه إلا الكرم .

قدم سَبيٌ على النبي ﷺ بالمدينة ، فإذا امرأة منهم قد تَحَلَّبَ ثَدْيُها ، إذ وجدت صبياً في السبي ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أترون هذه طارحةً ولدها في النار ؟ قالوا : لا ، وهي تقدر ألاّ تطرحه . فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها »(١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ ، في بعض غزواته ، فمرّ بقوم ، وامرأةٌ فيهم تحصب تَنُّورها ، ومعها ابن لها ، فإذا ارتَفَعَ وَهَجُ التنور تَنَحَّتْ به . فأتت النبي ﷺ ، فقالت : أنت رسول الله ؟ قال : نعم . قالت : بأبي أنت وأمي ، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ قال : بلى .

(١) صحيح البخاري ، وسنن ابن ماجه .

قالت : أوليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟ قال : بلى . قالت : فإن الأم لا تلقي ولدها في النار . فأكبّ رسول الله ﷺ يبكي ، ثم رفع رأسه لها ، وقال : إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله ، ويأبى أن يقول : لا إله إلا الله »[١] .

وقصة الجندي الذي ألقى التمرات من يده ، شوقاً إلى لقاء الله ، مشهورة معروفة .

فأين هي الجفوة بين المسلم وربه ، التي زعمها أعداء الإسلام ؟

لذلك اخترت هذا الموضوع لأبيّن ، بشيء من الوضوح والأمثلة ، ذلك الحب الراسخ بين العباد وربهم . وبين المؤمنين ونبيهم ، وبين المؤمنين مع بعضهم ، بل ومع الناس جميعاً ، والمخلوقات كافة .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الأفاضل قد تعرض لهذا الموضوع ، ولكن بكثير من الاختصار ، كما فعل الأستاذ العلامة الشيخ ( محمد محمد المدني ) في مقال له في مجلة الأزهر ، وكما فعل الأستاذ ( عفيف عبد الفتاح طبّارة ) في سطور قليلة من كتابه ( روح الدين الإسلامي ) .

وحب الله تعالى للعبد ، الذي أثبته لأصحاب الأعمال العظيمة ، التي تشمل الخير للإنسانية كلها ، وحب العبد لله الذي يقرّبه من رحمته وعفوه ، وحب النبي الكريم ، وحب المؤمنين لبعضهم ، هذه مواضيع هامة ، ونقاط جديرة بالبحث والتقصي للحقائق ، وإيراد الأمثلة الواقعية على ذلك .

---

(١) ابن ماجه ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٥٧٦/٢

حول هـذه النقـاط ، عزمت بحول الله وتوفيقـه أن أجعل مـوضـوع كتـابي هذا .

وسترى أيها المؤمن الكريم نصوصاً صادقة ، حول كلّ عنصر من هذه العناصر التي أشرت إليها ، وقد جعلت بحثي في خمسة أبواب :

**الباب الأول : حب الله تعالى لعباده .**

وفيـه أذكر الآيـات الكريمـة ، التي صرّحت بخصـالٍ ، يتصف بهـا العبـد ، تستدعي محبة الله تعالى له ، وبيان كيفية هذه المحبة .

**الباب الثاني : حب العبد لربه .**

وفيه أعرض للأسباب الكثيرة ، التي تُوجب على العبد أن يحب خالقـه ، في حدود ما يسمح به الوقت ، ويكون فيه الإيضاح والإقناع .

**الباب الثالث : محبة النبي ﷺ لأمته** ، وبذله أقصى جهده في هـدايتهم ، وإرشادهم ، وإنقاذهم من الضلال ، والجهل ، والكفر .

**البـاب الرابع : وجوب محبـة المـؤمنين لنبيّهم ﷺ ، وآل بيتـه** ، وفيـه أذكر ما جاء من الأدلة في ذلك .

**الباب الخـامس : محبـة المؤمنين لبعضهم** ، ومـا جـاء من الأحـاديث التي تحض على هذا وترغب فيه .

وهذه أبحاث يتصل بها ، ويتفرع عنها ، الشيء الكثير ، وسأحـاول البحث في كل موضوع بقدر المستطاع .

فـإن وفقت لإيفـاء هـذه الأبحـاث حقهـا ، فـذلـك فضل من الله سبحـانـه

ومِنة ، وإن قصرت ، أو زَلَلْت ، فالكمال لله وحده . وهو سبحانه المسؤول أن يسدد خطانا ، ويهدينا سواء السبيل ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وبعد فهذه صفحات نافعات إن شاء الله لم نبتكرها ابتكاراً ، ولم نبتدعها ابتداعاً ، إنما هي ضوء مقتبس ، اقتباس انقطاعنا إلى المطالعات ، والدراسات المتتاليات ، في كتب الأوائل والأواخر من علمائنا الأبرار ، لا فضل لنا فيها ، إلا مثل فضل النحل ، تجني من أثمار الأشجار ، وأكمام الأزهار ، ما تقدمه للناس شهداً جنياً ، فيه شفاء لما في الصدور .

أرجو من الله العلي القدير ، أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن ينفع بها النفع العميم ، وأن يَجْعَلنا ممن يأتيه بقلب سليم .

دمشق في ١٠ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ
١ تشرين الأول ١٩٧٩ م

**أحمد نصيب المحاميد**



# البابُ الأوّل

# حبّ الله تعالى للعبد

وفيه ثمانية فصول :

الفصل الأول : المقاتلون في سبيله .

الفصل الثاني : المحسنون .

الفصل الثالث : التوابون .

الفصل الرابع : المتطهرون .

الفصل الخامس : المتقون .

الفصل السادس : الصابرون .

الفصل السابع : المتوكلون .

الفصل الثامن : المقسطون .



# حبّ الله تعالى للعبد

لفظ ( الحب ) ، وما تصرف منه ؛ من الألفاظ الكثيرة الدوران في كتاب الله عز وجل ، فقد جاء في أكثر من ثمانين موضعاً منه ، على أساليب شتى ، إثباتاً ونفياً .

وهو أيضاً من الألفاظ التي وردت في السنة المطهرة ، في كثير من أحاديث الرسول ﷺ .

وهو في هذا وتلك نوعان :

١ ـ حب الله تعالى للعبد .

٢ ـ وحب العبد لله عز وجل .

ولكل واحد من هذين النوعين ظاهرة جديرة بالنظر والدرس .

**أما حب الله تعالى للعبد** ، فقد تنوع تفسيره عند علماء المسلمين على مذاهب .

**فمذهب السلف** في المحبة المسندة إلى الله تعالى أنها ثابتة له عز وجل بلا كيف ولا تأويل ، ولا مشاركة للمخلوق في شيء من خصائصها .

**ومذهب غيرهم** : أن محبة الله تعالى للعبد تعني رضاه عنه ، وثناءه عليه وجزاءه على عمله الصالح ، الجزاء الأوفى .

ومصدر هذين النوعين : محبة الله تعالى للعبد ، ومحبة العبد لله ، قـ
في قوله عز وجل : ﴿ يا أيُّها الّذين آمَنوا ، مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دينـهِ ، يَأْتي اللهُ بِقَوْمٍ ، يُحِبُّهُم ، وَيُحِبّونَهُ ، أَذِلَّـةٍ على الْمُؤمِنينَ ، أَعِزَّةٍ على الكافِ يُجاهِدونَ في سَبيل اللهِ ، وَلا يَخـافونَ لَوْمَـةَ لائِمٍ . ذلِـكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِ يَشاءُ ، واللهُ واسِعٌ عَليمٌ ﴾[1] .

الحب والرضى المتبـادل : هـو الصلـة بين العبـد وربـه ، وهـو هـذا السـاري ، اللطيف الرفـاف ، المشرق الرائـق ، البشـوش ، هـو ذلـك الر الوثيق ، الذي يربط الإنسان بربه الودود .

وحب الله تعالى ، لعبـد من عبيـده ، أمرٌ ، لا يقـدر على إدراك قيمتـ من يعرف الله سبحانه بصفاتـه ، كما وصف نفسـه ، وإلاّ من وجـد إيقـا الصّفات في حسّه ونفسه وشعوره ، وكَيْنونَتِه كلِّها .

أجل ، لا يُقَدِّر حقيقة هذا العطـاء إلاّ من عرف حقيقـة الْمُعْطي ، ا الوهاب المتفضل ، صانعِ هذا الكون الهائل .

لا يقـدر حقيقـة هـذا العطـاء ، إلا من عرف الله خـالـق الإنسـان ، انطوى فيه العالم الأكبر ، وهو جرم صغير !

لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي عرف مَن هو الله ، من هو في عظ ومن هو في قـدرتـه ، ومن هو في تفرده ، ومن هو في ملكوتـه ، ومن هو والآخر ، والظاهر والباطن ، ومن هو على كل شيء قدير .

---

(١) المائدة ٥/٥٤

ثم مَن هذا العبد الذي يتفضل الله سبحانه عليه منه بالحب ، وهو من صنع يديه ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فكان !

وإذا كان حب الله تعالى لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً ، وفضلاً غامراً جزيلاً ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه ، وتوفيقه إياه لمعرفته ، وجعلَه يتذوق هذه المعرفة ، التي لا مثيل لها ، والتي نشأ عنها هذا الحب الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ، ولا شبيه ؛ إن هذا كله ، كذلك هو إنعام هائل عظيم ، وفضل غامر جزيل .

إن هذا الحب العظيم ، من الله العلي القدير ، لهذا العبد الضعيف الفقير ، لم يثبته القرآن الكريم ، إلا لذوي الأعمال العظيمة ، التي تفوق في قيمتها ، ومنزلةِ العاملين بها ما سواها من جنسها .

وقد نفى سبحانه هذا الحب عن ذوي الصفات السيئة ، التي توغل في السوء ، والتي من شأنها أن تشيع الضرر والفساد في المجتمع الآمن .

إن هذه الآيات التي أثبتت حب الله للعباد ، تصف هؤلاء العبادَ المحبوبين بأوصاف هي أمهات الأخلاق ، ومنابع الفضائل النفسية ، ولها من السمو عما يشاركها في أصل معناها ما يجعلها جديرةً بالحب ، الذي هو فوق مجرد القبول ، والرضا والإثابة بالنصيب الأوفى .

١ ـ فمن هذه الأوصاف ، وصفهم بأنهم هم المقاتلون في سبيله .

# الفصل الأول

## حب الله تعالى للمقاتلين في سبيله

قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ، كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[1] .

إن هذه الآية الكريمة ، ترسم صورة واضحة ، يحبها الله تعالى للمؤمنين ، ويرغبهم فيها ويحضهم عليها ، بهذا الإغراء القوي العميق ، على القتال في سبيله ، ومن أجل إعلاء كلمته ، وتوضح لهم معالم الطريق ، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق ، الذي يجب أن يتصفوا به ، إذا اقتضتهم طبيعة الحياة أن يواجهوا أعداءهم .

فواجبهم أن يكونوا من التعاون والتضامن والتماسك ، كالبنيان الذي ضُمت لبناته بعضها إلى بعضٍ ، ورصّت وشدت ، بحيث أصبح البنيان قوياً متماسكاً ثابتاً ، صامداً أمام الزلازل والعواصف والمحن .

إنها صورة معبرة عن موقف هذه الجماعة ، وقوة ارتباطها بعضها ببعض ، ارتباط الشعور وارتباط الحركة وارتباط النظام ، حسب الخطة الموجهة ، والهدفِ المرسوم بتعيين المواقع ، وتحديد الحركة .

---

(١) الصف ٦١/٤

إنهم كتلة قوية متماسكة صامدة تؤدي رسالتها ، وتندفع بكل بسالة وإقدام ، فتستحق نصر الله وتأييده وبالتالي محبته !

إن هذه الفئة من المؤمنين المخلصين جديرة بأن يتفضل الله عليها بحبه وتكريمه ؛ لأنهم بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيله .

وبذل النفس في سبيل الله لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كلّ ما يحب ، من دون الله لنفسه ، فأصل الشرك ومحبة الأنداد هو محبة النفس ، فإذا سمح بالنفس وبذلها في سبيل الله وطلباً لمرضاته ، كانت محبة الله تعالى في قلبه راجحةً على محبة كل شيء ، فكان من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَالَّذين آمنوا أشَدُّ حُبّاً للهِ ﴾[1] وإذا كانوا كذلك ، استحقوا محبة الله لهم ، لقوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ ويُحِبّونَهُ ﴾[2] .

وكانت الصفوف معروفة في تلك الأزمان السابقة ، عند نزول الآية الكريمة ، فكان القائد يَصفُّ الجنود ويستعرضهم ، ويعيّن أماكنهم في الصف ، حسب ماتقتضيه المصلحة الحربية ، لذا كان التراص من أساليب الحرب المتبعة إذ ذاك ، لأن الفرجة الموجودة في الصف قد تُغري بعض الأعداء فيقحم فرسه ، لدخول هذه الفرجة فيفتك بمن حوله ، فيحدث تزلزل في الصف ، ويقع الرعب فيختل النظام ، وربما كان ذلك سبباً في نصر الأعداء وتغلبهم .

لذلك حضّت الآية الكريمة ، على المحافظة على رصّ الصفوف ، وإحكام هذا الرصّ ، حسب الخطة المتبعة في الحروب في ذلك الوقت .

---

(١) البقرة ١٦٥/٢

(٢) المائدة ٥٤/٥

أما الآن وقد تغيرت أساليب الحرب ، وأحدثت هذه المعدات الجهنمية المدمرة ؛ من دبابات وقاذفات وصواريخ ومقاتلات . فلا بد من الاستعداد والتنظيم حسب ماتقتضيه المصلحة الحربية . وقد بينت الآية الكريمة في قوله عز وجل : ﴿ وَأَعِدّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾[1] كل ما ينبغي أن يكون ، باختصار رائع وبيان مشرق .

كما أشار النبي الكريم ﷺ إلى ما قد يحدث من تطور في أساليب القتال ، وبيّن أنّ المراد من الآية الكريمة[2] الصمود والثبات .

فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إن الله يحب من يثبت في الجهاد ، ويلزم مكانه كثبوت البنيان » وهذا يَصدق على الجندي في دبابته ، والجندي في خندقه ، والجندي في موقعه ، والجندي وراء مدفعه ، فالمطلوب من الجميع أن يثبتوا ويصمدوا ، ولا ينـدحروا حتى يحقق الله لهم النصر أو يرزقهم الشهادة .

٢ ـ ومن هذه الأوصاف وصفهم بأنهم هم المحسنون .

---

(١) الأنفال ٦٠/٨

(٢) وهي قوله تعالى : ﴿ إنّ اللهَ يُحِبُّ الّذينَ يُقاتِلونَ في سَبيلِهِ صَفّاً كأنّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصوصٌ ﴾ .

# الفصل الثاني

# حب الله تعالى للمحسنين

بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

إن مجال الإحسان رحب الدائرة ، ينتظم أعمال الإنسان كلها في الحياة ، من المهد إلى اللحد ، والمحسن هو الذي يتقن كل عمل يقوم به في حياته ، سواء أكانت أعمالاً دينية أو دنيوية ، والآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ ، إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾[2] تشير إلى إتقان العمل وإحسانه .

وجواب النبي ﷺ لمن سأله عن الإحسان بقوله : « ... أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... »[3] يؤكد أن المحسن هو الذي يبالغ في إتقان عمله ، وإجادته .

والشعور بأن العامل يرى وجه ربه أمامه ، ويوقن بوجوده معه ، باعث على إجادته ، ودافع لإتقانه ، فإذا لم يبلغ المرء هذه المرتبة من معرفة الله ، فلا بد من المرتبة الثانية ، وهي الشعور بإشراف الله تعالى ، ورقابته عليه وعلى كل شيء حوله . وبذلك ينتقل إلى مدلول الآية الكريمة : ﴿ وَقُلْ

---

(١) البقرة ١٩٥/٢

(٢) الكهف ٣٠/١٨

(٣) من حديث طويل ، أخرجه مسلم ١٥٧/١

اعْمَلوا ، فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسولُهُ وَالْمُؤْمِنونَ وَسَتُرَدّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ ﴾[1] .

وفي الخبر : « لو أن رجلاً عمل في صخرة لا بابَ لها ولا كُوة ، لخرج عمله للناس ، كائناً ما كان » .

قال الإمام النووي رضي الله عنه ورحمه ، عند شرحه لحديث : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » قال : « هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ ، لأنا لو قدّرنا أن أحدنا قام في عبادة ، وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى ، لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت ، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلاّ أتى به . فقال ﷺ : اعبد الله في جميع أحوالك ، كعبادتك في حال العيان ، فإن التتميم المذكور في حال العيان ، إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ؛ فلا يُقدم العبد على تقصير في هذه الحال ، للاطلاع عليه .

وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد ، فينبغي أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام : الحث على الإخلاص في العبادة ، ومراقبة العبد ربّه تبارك وتعالى ، في إتمام الخشوع والخضوع ، وغير ذلك .

وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ، ليكون ذلك مانعاً من تلبّسه بشيء من النقائص ، احتراماً لهم ، واستحياءً منهم ، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعاً عليه في سره وعلانيته !

---

(١) التوبة ١٠٥/٩

قال القـاضي عيـاض رحمـه الله : وهـذا الحـديث قـد اشتمل على شرح جميع وظـائف العبـادات الظـاهرة والبـاطنـة ، من عقود الإيمـان وأعمـال الجـوارح ، وإخلاص السرائر ، والتحفظ من آفات الأعمـال ، حتى إن علوم الشريعـة كلهـا راجعة إليه ، ومتشعبةٌ منه .

ثم قال : وعلى هذا الحديث وأقسامه الثلاثـة ، ألّفنـا كتـابنـا الـذي سمينـاه ( المقاصد الحسان ، فيما يلزم الإنسان ) . إذ لا يشـذّ شيء من الواجبـات والسنن والرغائب ، والمحظورات والمكروهات عن أقسامه الثلاثـة[1] ، والله أعلم » . اهـ كلام الإمام النووي في شرح مسلم[2] .

ولتمام الفائدة ، وليكون الحديث بأقسامه الثلاثـة التي أشرت إليهـا مسطوراً أمام عينيك ، رأيت أن أذكره كاملاً كما رواه الإمام مسلم رحمه الله :

قال الإمام مسلم :

عن يحيي بن يعمر ، قال :

« كان أولَ من قـال في القـدر بـالبصرة ( مَعْبَـد الْجُهَني ) فـانطلقت أنـا وحُمَيْدُ بنُ عبد الرحمن الحِمْيري حـاجَّيْنِ أو معتمرين ، فقلنـا : لو لقينـا أحـداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر .

فَوُفِّق لنـا عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما داخلاً الْمَسْجِـدَ ، فـاكتنفته أنـا وصـاحبي ، أحـدنـا عن يمينـه والآخر عن يسـاره ، فظننت أن صـاحبي سيكل الكلام إليَّ فقلت : يا أبا عبد الرحمن ـ كنيةُ ابن عمر ـ إنه قد ظهر قِبَلَنا نـاس

---

(١) قلت : ويقصد بأقسامه الثلاثة : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان .

(٢) جـ ١٥٨/١

يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم[1] ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قَدرَ ، وأن الأمر أُنُفٌ[2] ! فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثلَ أُحُدٍ ذهباً فأنفقه ، ما قَبِلَ الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منّا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ! أخبرني عن الإسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ، قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه ؟! قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربَّتَها[3] ،وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء

(١) يتقفرون : يتَتَبَّعون ، يقال : قفرت الأثر ، أي تتبعته ، كناية عن طلبه ، ولو في القفار .

(٢) قال في القاموس : روضة أُنُفٌ : لم تُرْعَ ، وكأس أنف : لم تشرب ، وأمر أنف : لم يسبق به قدر ، ومرادهم أن أعمال العباد مستأنفة لم تكن مقدرة ..

(٣) أي سيدتها ، والمراد : أن السبي يكثر ، والنعمة تفشو ، ويكثر التسري ، حتى يكون لأبناء الكبراء ، والعظماء ، وبناتهم من السراري مثل ما لهم أنفسهم .

الشاء يتطاولون في البنيـان . قـال : ثم انطلق ، فلبثت مَليّاً[1] ، ثم قـال لي : يا عمر ، أتدري من السـائل ؟ قلت : الله ورسولـه أعلم ، قـال : فـإنـه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

أخي القـارئ الكريم : هـذا هـو الحـديث العظيم ، المعروف عنـد العلمـاء بحديث جبريل . هذا هو الحديث الذي قال عنه القـاضي عيـاض : « **إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومتشعبة منه** » لذا ألف كتابـاً كاملاً في شرحـه ، أسماه ( المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان ) .

وأعود الآن إلى تمام الكلام على ( الإحسان ) الـذي ورد في هـذا الحـديث ، والـذي فسره النبي ﷺ بقولـه : « أن تعبـد الله كأنـك تراه ، فـإن لم تكن تراه فـإنـه يراك » ، وقـد قـدمت لـك مـا قـالـه النـووي رحمـه الله ، من أن تفسير النبي ﷺ للإحسان بهذا هو من جوامع كلمه ﷺ ، فلو قال ﷺ : ( أن تعبد الله ، متقنـاً عبـادتـه ، مؤديـاً لهـا على أكمل وجوههـا ) لكان تفسيراً للإحسـان بحقيقته ، ولكنه لا يكون مؤدياً لفـائـدة جـديـدة ، إذ مقصود السـائل معرفـة الطريق إلى هذا الاتفاق ، لذلك عدل إلى هذه الصيغَة ، المتضمنة لبيـان وسيلـة الإحسان ، إقـامـةً للملزوم مقـام اللازم ، وهو فن بليغ من فنون البيـان يسمى بالكناية .

تلك الوسيلة هي أن يكون العامل في عمله ، كأنما يرى الحق سبحـانـه رأيَ العين ، ولا ريب أن من يكون كذلـك يكون عملـه أحسن الأعمـال ، وحـالـه أكمل الأحوال ، قلْباً وقالباً .

---

(١) ملياً : الملي طائفة من الزمان طويلة ، يقـال : مضى ملي من النهـار ، أي : سـاعـة طويلـة منه .

وإذا لم يصل إلى هذه المرتبة كما أشرت سابقاً ، فلا بدّ من إيقانه بأنه هو سبحانه وتعالى يراه .

وعلمك برؤيته تعالى إياك ، يبعثك على أن تكون في معاملته بحال تشبه رؤيتك إياه ، ذلك أن عناية العامل بإتقان العمل ، حينما يرى الرقيب عليه ، ليس مبعثُها في الحقيقة رؤية العامل لذلك الرقيب ، بل مبعثها علمه برؤية الرقيب له ، حتى إنه لو كان بالعامل من ضعف البصر مثلاً ما يَمْنَعُهُ من رؤية ذلك الرقيب ، ولكنه سمع صوته ، أو أخبره مخبر بقدومه ، وإشرافه عليه ، كانت النتيجة في الحالين واحدة .

فكذلك أنت أيها المؤمن إذا أردت أن تكون من أهل الإحسان في العمل ، فأشعر قلبك أن عين الله تُراقبُك ، في خلوتك وجلوتك ، وأنه لا تخفى عليه منك خافية : ﴿ ما يَكونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلاّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلوا يَوْمَ القِيامةِ إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ ﴾[1] .

﴿ وما تَكونُ في شَأْنٍ وما تَتْلو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلونَ مِنْ عَمَلٍ إلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهوداً إذْ تُفيضونَ فيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ وَلا في السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلاّ في كِتابٍ مُبينٍ ﴾[2] .

فالمحسن هو الذي يشعر نفسه بمراقبة الله تعالى له ونظره إليه ، فهو يستحيي منه عز وجل ، على قدر عظمته وجلاله ، فلا يجعله أهونَ الناظرين إليه ، وتلك درجة عليا من درجات الإحسان .

---

(١) المجادلة ٧/٥٨

(٢) يونس ٦١/١٠

والله سبحانه وتعالى المطلع على جميع أعمال العاملين ، على اختلاف أنواعها ، من أعمال دنيوية وأخروية ، هو سبحانه ﴿ الذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾[1] ، لذا يحب من عبده ، الذي جعله خليفته في الأرض ، أن يُتْقِن كلَّ عمل يقوم به ، وكل شيء يصدر عنه ، وأنْ لا يُخْرِجَهُ من بين يديه ، إلا وهو سالم من كل عيب ونقص .

وتأكيداً لهذا ، جاءت الشريعة المطهرة ، بتعاليمها وإرشادها ، توضح وترسم الوسائل للإحسان بالعمل .

قال ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة ، وليُحِدَّ أحدكم شفرته ، وليُرح ذبيحته »[2] . وقال : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »[3] . ونستطيع القول : بأن إجادة الأعمال وإتقانها ، غاية من وجود الإنسان على ظهر هذه الأرض . قال تعالى : ﴿ تَبارَكَ الّذي بيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، الّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزيزُ الغَفورُ ﴾[4] .

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقود شاةً من رجلها ليذبحها ، فقال له : « ويحك ، قُدها إلى الموت قوداً جميلاً »[5] . وعن المسيّب بن دار ، قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب جمالاً وقال : « لِمَ تحمل على

---

(١) السجدة ٣٢/٧

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) الملك ٦٧/١ ـ ٢

(٥) رواه عبد الرزاق .

بعيرك ما لا يطيق »[1] . وعن عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رجلاً حَدّ شفرته وأخذ شاة ليذبحها ، فضربه عمر بالدرة ، وقال : « أتعذب الروح ، ألا فعلت هذا قبل أن تأخذها »[2] . وعن وهب بن كيسان ، أن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، رأى راعي غنم في مكان قبيح ، وقد رأى ابن عمر مكاناً أمثَلَ منه ، فقال ابن عمر : « ويحك يا راعي ، حَوّلها ( أي إلى المكان الأحسن ) فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : كلكم راع مسؤول عن رعيته »[3] .

والأعمال التي تقوم عليها حياة الأمة متشعبة الأطراف واسعة النواحي ، فيجب أن يُختار لها الأكفاء ذوو المواهب الصالحة ، في كل مجال من مجالات الحياة .

ويجب كذلك أن تتبع القواعد والأسس المرسومة لكل عمل ، وبذلك يتحقق الإحسان المطلوب فيه ، إذ أن إحسان العمل ، لا يأتي بالادعاء والجهالة ، فإن لكل عمل ديني أو دنيوي قواعد يصح بها ، وتدرك بالتعلم والمران .

ولن يبلغ المرء درجة الإحسان ، حتى يستوعب الأصول المقررة لكل عمل ، بل لا بدّ فوق معرفة أصوله ، من أن يصل إلى طور الإجادة والتبريز .

فللكلام العربي قواعد نحوية وصرفية لا يكون عربياً مقبولاً إلا مع توفرها فيه ، وإنما يكون صحيحاً عندما يتفق مع هذه القواعد ، ولكن لا يوصف بأنه بيان حسن ، إلا إذا كان عليه من رُواء البلاغة طابعٌ جميل .

(١) رواه ابن سعد في الطبقات .
(٢) رواه البيهقي .
(٣) أخرجه الإمام أحمد .

وللصلاة سنن وأركان وشروط وهيئات ، ينبغي أن يستجمعها المصلي ، فإذا تمّت هذه الشروط والأركان ، كانت صلاته صحيحة ، ولكن لا تبلغ درجة الإحسان إلا إذا تألق في حركاتها وسكناتها روح الخشوع ومراقبة الخالق سبحانه وخلوص القلب لعظمته وجلاله .

وقس على هذا كلّ عمل من الأعمال الشرعية التي تعبدنا الله بأدائها ، وأوجب علينا القيام بها . وكما تقدمت الإشارة ، لا يقتصر هذا الإحسان على الأمور الدينية ، والتشريعية ، بل يشمل كل نواحي الحياة :

فقيادة السيارات ـ مثلاً ـ لها تعاليم وشروط ، والقدرة على القيادة توجب على الإنسان أن يُلم بهذه التعليمات ، حتى يكون قادراً على سوق سيارته ، لكن الإحسان في القيادة لا يكون إلا إذا قطع شوطاً بعيداً في هذا المجال ، وبذلك يكون أكثر ضماناً لسلامته وسلامة مواطنيه .

ومن محاسن الإسلام وبعد نظره : أنْ حدّد المسائل الشرعية التعبدية ، ورسم لها أشكالها وأعدادها وكيفية تأديتها ، وجعلها ثابِتَةً على صُوَرِها المأثورة ، لا مجال فيها لتحوير أو تطوير .

أما مسائل الحياة : من زراعة وصناعة ومعامل ومصانع وغيرها ، فقد تركها لعلم الناس وتجربتهم على مرّ العصور ، وبذلك فتح لها باب الإبداع والانطلاق والتطور ، ولذا قال ﷺ : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »(١) .

وقد تكلم الإمام الشاطبي رحمه الله في هذا الموضوع ، بكلام مُسْهبٍ ومفيد ، نقتطف منه ما يلي مع قليل من التصرف :

(١) رواه مسلم ، في كتاب الفضائل برقم ( ٢٣٦٣ ) وابن ماجه ، باب : تلقيح النخل ، بلفظ : « أنتم أعرف بأمور دنياكم » .

قال : إن ذلك ( يشير إلى إحسان العمل وإتقانه ) يتطلب مرحلتين : التعليم العام ، ثم الإعداد الخاص .

« ... وذلك أن الله عز وجل ، خلق الخلق غيرَ عالِمين بوجوه مصالحهم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ! ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ واللهُ أخْرَجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمونَ شَيْئاً ﴾(١) . ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدريج والتربية ، تارة بالإلهام ، كما يُلهم الطفل التقام الثدي ومصَّه ، وتارة بالتعلم ، فطلب من الناس أن يتعلموا جميع ما تُسْتَجْلَبُ به المصالح وكلّ ما تُدْرَأ به المفاسِد ، إنهاضاً لما جَبَل فيهم من غرائز فطرية ومطالب إلهامية .

وفي أثناء العناية بالأجيال الناشئة وتنمية مواهبها الفطرية ، يقوي في كل واحد من الخلق ما امتاز به ، ويبرّز فيه على أقرانه الذين لم تهيئهم الأقدار على غرائزه ، فلا يأتي زمان التعقل حتى ينضج فيه ما اختُصَّ به من ملكات .

فهذا يطلب العلوم ، وهذا يعشق الآداب ، وهذا يتجه لبعض المهن ، وهذا يهوى الرياضة والفروسية ، وهذا يحب الكفاح والجلاد ، وهذا يَنْشُد التقدم والرياسة ... إلخ .

وإذا كان كلّ واحد قد غرزت فيه القدرة على الاقتباس من شتى العلوم والمعارف ، إلاّ أن العادة جرت بغلبة بعض الميول ، إلى ناحية من النواحي ، فالتربية الصحيحة حينئذ أن تُقَوَّى فيه هذه الميول بالإنماء والرعاية ، ثم توزيع الأعمال على المكلفين بما يُوائِمُ ميولهم وطبائعهم ، وعندئذٍ ينهض كلّ مكلف بأداء ما هو راغب فيه بإحسان(٢) .

(١) النحل ١٦/٧٨

(٢) الموافقات ١/١٧٩

وقريب مما قاله الشاطبي رحمه الله في توزيع الأعمال على من يحسنونها ، وَفْقَ استعدادهم النفسي والعقلي ، ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله في تغاير التكاليف والواجبات ، بالنسبة إلى ميول الأشخاص ومواهبهم ، فقد قال :

« ... فالغني الذي بلغ ماله الكثرة ، ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه ، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة .

أي إن الإحسان في التقرب إلى الله تعالى يكون في بذل المال والتصدق به ليقي نفسه من الحرص والشح ، وليكون من المفلحين .

قال تعالى : ﴿ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ ﴾(١) .

والشجاع الشديد ، الذي يهاب العدوُّ سطوته ؛ وُقوفُه في الصف ساعة ، وجهاده أعداء الله : أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع .

والعالم الذي قد عرف السنة ، والحلال والحرام ، وطرقَ الخير والشر ، مخالطتُه للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة ، وقراءة القرآن والتسبيح .

وَوَلِيُّ الأمر ، الذي نصبه الله للحكم بين عباده ؛ جُلوسُه ساعة للنظر في المظالم ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، وإقامة الحدود ، ونصر الْمُحق وقمع المبطل ، أفضل من عبادة سنين من غيره .

وتأملْ تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله ، وترك تولية أبي ذر رضي الله عنه ، بل قال له : « إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تَـؤَمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تَـولَّيَنَّ

(١) الحشر ٩/٥٩

مالَ يتيم » . وأمره وغيره بالصيام ، وقال : عليك بالصوم فإنه لا عِدْلَ له ( أي لا مثيل له ) ، وأمر آخر بأن لا يغضب ، وأمر ثالثاً بأن لا يزال لسانه رطباً بذكر الله .

ومتى أراد الله بالعبد كمالاً ، وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له ومحسن فيه .

فإذا استفرغ وسعه في ذلك بَزَّ على غيره وفاق الناس فيه ، وكان كما قال القائل :

ما زال يسبق حتى قال حاسده : هذا طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن - مثلاً - إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به ، وإذا استعمل دواء وجع الرأس ، لم ينتفع به ، ولم يصادف داءه .

فالشح المطاع - مثلاً - من المهلكات ، ولا يزيله صيام مئة عام ولا قيام ليلها . وكذلك داء اتباع الهوى ، والإعجاب بالنفس ، لا يلائمه كثرة قراءة القرآن ، واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد ، وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده .

ولو قيل : أيها أفضل ، الخبز أو الماء ؟ لكان الجواب : إن هذا في موضعه أفضل ، وهذا في موضعه أفضل اهـ .

فقد اتضح من كل ما تقدم : أن المحسن الذي منحه الله تعالى حبه ، هو هذا المتصف بتلك المزايا العالية ، والذي جاهد نفسه حتى أخلص في عمله لخالقه ، وأبرز هذا العمل بنيةٍ خالصة مع الإحسان والإتقان .

وأحب هنا أن أوضح أن العبد ، إذا لم يستطع إبراز العمل ، بهذه الصفة من الإخلاص لله والإحسان فيه ، فليس معنى ذلك أن يترك العمل إطلاقاً ، بل عليه أن يسير في طريق الإخلاص والإحسان ، حتى يُوفق إلى ذلك ، وكل من سار على الدرب وصل ، قال تعالى : ﴿ والَّذينَ جاهَدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحسِنينَ ﴾[1] .

وجدير بنا في هذه المناسبة أن نذكر قول ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله تعالى - وهو من أكابر الصوفية الأولين - يرغب في الذكر ويحض على المصابرة ، حتى يصل الذاكر فيه إلى مقام الإحسان ، قال رحمه الله :

« لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، فإن غفلتك عن وجود ذكره ، أشدّ من غفلتك في وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكرٍ مع وجود غفلة ، إلى ذكر مع وجود يَقَظَة ، ومن ذكرٍ مع وجودِ يَقَظَة ، إلى ذكرٍ مع وجود حضور ، ومن ذكرٍ مع وجود حضور ، إلى ذكرٍ مع رغبة عما سوى المذكور ، ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾[2] » .

وقد علق الأستاذ ( محمد الغزالي ) على هذه ( الحكمة العطائية ) بكلام جيد ، أقتطف منه ما يناسب المقام قال :

«... يرى ابنُ عطاء الله ؛ أنه لا ينبغي للمرء أن يترك الذكر ولو كان قلبه مشغولاً ، فإن إصراره على الذكر سوف يترقى به إلى أعلى المراتب .

إنه قبيح بالإنسان أن ينسى ربه ، أو يسأم ذكره ، وهو ملحوظ بعنايته

---

(١) العنكبوت ٦٩/٢٩

(٢) إبراهيم ٢٠/١٤ ، وفاطر ١٧/٣٥

سبحانه في كل حين . وقد تطغى صور الوجود الأدنى على الفؤاد ، فيكون ذكر المرء لله تعالى حركة لسان ، لاتصحبها صحوة جنان ، وربما شعر أن هذا الذكر الشفهي قليل الجدوى فيتركه ، والأولى به أن يُصرّ عليه ، فإن هذا الإصرار حميد العقبى .

ولو فرضنا أنه انتهى إليه ، فهو خير من السكوت ، إنه انشغال عضو بطاعة الله ، وهذه المشغلة ـ على تفاهتها ـ حاجز عن معصيته .

فكيف لو ترقى به بعد هذا الإدمان لذكر الله ، فَفَضّ مغاليق الغفلة عن قلبه ، وجعله يقظان المشاعر ، فهو يذكر الله بقلبه ولسانه جميعاً » اهـ .

روي عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ : « أن رجلاً سأل فقال : أيُّ المجاهدين أعظم أجراً ؟ قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً . قال : فأيُّ الصالحين أعظم أجراً ؟ قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً . ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسولُ الله ﷺ يقول : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً . فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص ، ذهب الذاكرون بكل خير ! فقال رسول الله : أجل »[١] .

نعم هذا هو الذكر الذي يقارن الأعمال ، فيتحول الاستغراق فيه إلى شدة مراقبة المذكور ، فيبرز العمل خالصاً من القلب ، ومتقناً من اليد ، ونبيلاً في الغاية ، وذلك منتهى الإحسان .

٣ ـ ومن هذه الأوصاف أيضاً ، وصفهم بأنهم هم التوابون .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل .

# الفصل الثالث

# حب الله تعالى للتوابين

في قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] .

وقد انعقد الإجماع على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكة ، تبعد العبد عن ربه ، فيجب التخلص منها على الفور ، ولن يكون ذلك إلا بالتوبة .

ويستند الإجماع في وجوبها على قوله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا تُوبوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ يَومَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَبِأيْمانِهِمْ يَقولونَ : رَبَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾[2] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ... وتُوبوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أيُّها المؤمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] ، وقول النّبي ﷺ : « ياأيها الناس ، توبوا إلى ربكم ، فإني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرة » .

وفي الصحيحين ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِّيّة[4] مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد

(١) البقرة ٢/٢٢٢

(٢) التحريم ٦٦/٨

(٣) النور ٢٤/٣١

(٤) الدَّوِّية : المفازة ؛ الأرض القفر .

ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشَدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن مِنْ هذا براحلته » .

وفي رواية لمسلم : « فأخذ بخطامها ثم قال من شدّة الفرح : اللهم أنت عبدي ، وأنا ربّكَ » أخطأ من شدة الفرح .

قال القرطبي رحمه الله : اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النّصوح ، على ثلاثة وعشرين قولاً :

قلت : وأنا أختار لك أيها الأخ الكريم بعض هذه الأقوال ، مما يؤدي المقصود من بيان التّوبة النّصوح :

ـ قال الكلبي : التوبة النصوح : ١ ـ الندم بالقلب . ٢ ـ الاستغفار باللسان . ٣ ـ الإقلاع عن الذنب . ٤ ـ الاطمئنان على أنه لا يعود .

ـ وقال سعيد بن جبير : هي التوبة المقبولة ، ولا تقبل إلا بثلاثة شروط : ١ ـ خوف ألاّ تقبل . ٢ ـ رجاء أن تقبل . ٣ ـ إدمان الطاعات .

ـ وقال أبو بكر الورّاق : هو أن تضيق عليك الأرض بما رَحُبَتْ ، وتضيق عليك نفسك ، كالثلاثة الذين خُلِّفوا[1] .

(١) الذين خلّفوا هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، أو ربيعة العامري ، وهلال بن أمية .

ـ وقال ذو الأذنَيْن[1] : هو أن يكون لصاحبها دمع مسفوح ، وقلب عن المعاصي جموح .

ـ وقال ذو النون[2] : علامة التوبة النصوح ثلاث : قلة الكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام .

فالتوبة على هذه التعريفات التي تقدمت عن نخبة من العلماء والصلحاء والأتقياء ، هي أول مراحل الطريق المفضي إلى تأهيل الإنسان إلى محبة الله تعالى له .

ذلك ، لأن كل بني آدم خطّاء ماعدا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فأولئك اصطفاهم الله تعالى من النشأة الأولى ، وتخيرهم من معادن أرقى ، فهم ليسوا على غرارنا ، وإن كانوا من تراب الأرض مثلنا ، على حَدّ قول الشاعر :

فإن اتّفق الأنام وأنت منهم  فإن المسك بعض دم الغزال

وخير الخطّائين التّوابون ، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل بني آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التّوابون » .

---

(١) ذو الأذنَيْن : لقب أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، لأن النّبي ﷺ قال له مرة : « يا ذا الأذنين » ، قيل : معناه الحضّ على حسن الاستماع والوعي ، وقيل : هذا من جملة مزاحه عليه الصلاة والسلام .

(٢) ذو النون : هو ثوبان بن إبراهيم المصري المعروف بذي النون الصالح المشهور . كان أوحد وقته علماً وأدباً وورعاً وحالاً . وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضي الله عنه . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان .

فهذا الإنسان الذي اقترف الذنب ووقع في الخطيئة ، تـذكر واستيقـظ فعلم أنه وقع في المخالفة ، وأن ربّه عزّ وجلّ فتح له باب التوبة ، ووعـده بقبولها في صريح قولـه عزّ وجـلّ : ﴿ وَهُـوَ الَّـذِي يَقْبَـلُ التَّـوْبَـةَ عَنْ عِبـادِهِ وَيَعْفُـو عَنِ السَّيِّئاتِ ﴾[1] . فجثا هذا المذنب في سـاحـة الرحمن الفسيحـة ، ثم جعل يهتف من أعماق نفسه : « ربِّ اغفر وارحم ، وأنت خير الراحمين » .

إن هـذا الإنسـان علم أن لـه ربّاً عظيمـاً كريمـاً غفوراً رحيماً ، يقبل التوبـة ويعفو عن السيئات ، فرجع إليه وندم على مافرط منه ، ومدّ إليه يـد الضراعـة سـائلاً العفو والصفـح .. فـلا شـك أنّ الله تعـالى يستجيب لـه ، ويلبي طلبـه ويتكرم عليه ، بمزيد من الفضل والامتنان ، فيجعله ممن يحبهم ويقرّبهم ...

والإنسان الكيّس ، لا يتهـاون في الرجوع إلى ربّـه والنـدم على ذنبـه ، فهو حذر يقظ من وساوس الشيطان ودسائسه : ﴿ إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإذا هُمْ مُبْصِرونَ ﴾[2] .

وقد حضّ الرسول الكريم على الإسراع في التوبة وحـذر من التسـويف ، في قوله عليه الصلاة والسلام :

« النـادم[3] ينتظر من الله الرحمـة ، والمعجَب ينتظر المقت ، واعلموا عبـاد الله ، أن كل عامل سيقدم على عملـه ، ولا يخرج من الـدنيـا حتى حِسن عملـه ، وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهـار مطيتـان ، فـأحسنوا السير

---

(١) الشورى ٢٥/٤٢

(٢) الأعراف ٢٠١/٧

(٣) الأصبهاني .

عليها إلى الآخرة ، واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتي بغْتَة ، ولا يغترَّنَّ أحدكم بحلم الله عزّ وجلّ ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شِراك نَعْلِه ، ثم قرأ ﷺ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾(1) .

لذا فإن على كل إنسان ساء فعله واضطربت حاله ، أن يسارع إلى ربِّه ، متعهداً نفسه بالرعاية والتأديب ، مقبلاً على شأنه بالتنقية والتهذيب ، حتى يستطيع النجاة مما وقع فيه .

والمسارعة إلى التوبة والندم منذ اليوم ألزم وأحزم من الانتظار إلى الغد ، فإن العمر قصير ، والموت يأتي بغتة .

والمجال مفتوح أمامك ، ويد الله تعالى مبسوطة إليك ، تهيب بك أن أقبِلْ إليَّ ياعبدي فأنا لاأردُّ التائبين .

ولا أدلُّ على ذلك من قول النَّبي ﷺ : « إنّ الله يبسطُ يَدَهُ بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسطُ يَدَهُ بالنهار ليتوب مسيء الليل »(2) .

وفي الحديث القدسي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ياابن آدم إنك مادعوتني ورجوتني ، غفرت لك على ماكان منك ولا أبالي ، ياابن آدم لو بلغت ذنوبك

---

(1) الزلزلة ٩٩/٧ ـ ٨

(2) رواه مسلم .

عنـان[1] السماء ثم استغفرتني غفرت لـك ، يـاابن آدم إنــك لـوأتيتني بقُراب[2] الأرض خطايا ثم لقيتني لاتشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقُرابها مغفرة »[3] .

## أمل باسم يدعونا إلى الله تعالى :

هذا الحديث وأمثالـه ، يحيي في نفوسنـا الأمل ، ويجـدد في إرادتنـا العزم ، لنستأنف السير إلى ربّنا ، ونسارع في الإقبال عليه واللجوء إليه ، فلماذا لانطير إلى ربّنا على أجنحة من الشوق والمحبة ، بدل أن نسـاق إليـه بسيـاط من الشـدة والرهبة ، فإنَّا لن نجد أرحمَ بنا منـه سبحـانـه ، ولا أبرَّ بنـا ولا أحنى علينـا ، وصدق الله عزّ وجلّ إذ يقول : ﴿ ... وإنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤوفٌ رَحيمٌ ﴾[4] .

وقـد مرّ بـك أيهـا القـارئ الكريم ، الحـديث الـذي يعبر عن بـالـغ فرح الله تعالى بعبده حينما يجثو بين يديه تائباً منيباً .

ـ الغاية من خلق الإنسان :

ولّما خلق الله هذا الإنسان ، أعلن أنـه خلقـه ليكرمـه وينعمـه ، لا ليهينـه ويُشقيه ، حتى إذا رأى عبده أجهد نفسه بعبادتـه وطـاعتـه ، وحمَّل نفسـه فوق طاقتها ، أرشده إلى الاعتدال والتؤدة ، وبيِّن له أن ليس من القربات : حرمان النفس من أخذها قسطاً من الراحة ، وتناولها شيئاً من متاع الحياة .

---

(١) عنان السماء : ـ بفتح العين ـ هو السحاب ، أو ما ظهر منها إذا رفعت رأسك إليها .

(٢) قُراب : ملء .

(٣) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) الحديد ٩/٥٧

والله سبحانه يقول لنبيّه الكريم : ﴿ طَهَ ، ماأنْزَلْنا عَلَيكَ القُرآنَ لِتَشْقَى ﴾[1] ، ويقول : ﴿ يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾[2] ، ويقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها ﴾[3] ، ويقول : ﴿ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[4] .

وحديث الجماعة الذين أرادوا أن يفعلوا في الإسلام مايشبه الرهبانية ونَهْيُ الرسول ﷺ لهم دليل ناصع على سماحة الإسلام وحبه للاعتدال .

فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال :

« جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النّبي ﷺ يسألون عن عبادة النّبي ﷺ ، فلما أُخْبِروا كأنهم تَقالُّوها[5] ، قالوا : فأين نحن من رسول الله ﷺ ؟ وقد غُفِرَ له ماتقدم من ذنبه وما تأخّر ؟

قال أحدهم : أمّا أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخْشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوَّجُ النساء ، فمن رغب[6] عن سنّتي فليس مني » .

---

(١) طه ٢٠/١ ـ ٢

(٢) البقرة ١٨٥/٢

(٣) البقرة ٢٨٦/٢

(٤) الحج ٧٨/٢٢

(٥) أي رأوها قليلة ، بالنسبة لهم فأرادوا أن يكثروا منها .

(٦) رغب عن الشيء : تركه وصدف عنه ، ورغب فيه : مال إليه وآثره .

فالإسلام سهل سمح ، وتعاليمه لم يقصد بها القسوة والشدة ، بل هي محض الرحمة والخير ، وتكاليفه بني آدم ببعض العبادات ، وطلبه منهم المحافظة عليها ، وأداءها على الوجه الأكمل ، إنما ذلك ليكونوا دائماً مرتبطين بخالقهم ، ذاكرين آلاءه ونعمه عليهم ، لا ينقطعون عن رحاب كرمه .

## ترغيب وإغراء :

ولقد اشتدت رحمة الله بعباده ، وتكامل فضله عليهم ، حيث رغَّبهم في التوبة والإنابة ، ووعدهم بالقبول والاستجابة ، بل زادهم إغراءً وترغيباً ، فأخبرهم أنه يقبل عليهم أكثر من إقبالهم ، ويسارع في الترحيب بهم ، أكثر من مسارعتهم في توبتهم .

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عزّ وجلّ : أنا عند ظنّ عبدي بي(١) ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم ، وإن تقرّب مني شبراً(٢) تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتَيتُه هرولة » .

إنه ترحاب غامر ، يغري بالإقبال على ربّه ، ليجد في رحابه المغفرة الشاملة والجزاء الموفور .

---

(١) أنا عند ظنّ عبدي بي : قال القاضي : قيل : معناه بالغفران له إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب .

(٢) وإن تقرّب مني شبراً : هذا من أحاديث الصفات ، ويستحيل إرادة ظاهره . والمعنى من تقرَّب إليَّ بطاعتي ، تقرَّبت إليه برحمتي وتوفيقي وإعانتي ، وإن زاد زدت ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ، ولم أحوجه إلى كثير عناء للوصول إلى مقصوده .

ولكي يكون الإنسان دائماً مرتبطاً بخالقه ، ولديه ما يذكره به كلما طغت عليه مشاغل الحياة ومتطلباتها ، فرض سبحانه على هذا الإنسان أنواعاً من العبادات كما أسلفت قريباً، وأرشده إلى أذكار يدعوه بها ، تجري على لسانه في الصباح والمساء : « اللهم أنت ربِّي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[1] .

## أقسام التوبة :

### ١ ـ توبة عن الكفر بالله والشرك به :

وهذه واجبة على الذين لا يؤمنون بالله أو يشركون به ، فيتحتم على هؤلاء أن يتوبوا إلى بارئهم من هذا الجرم الأكبر ، ويوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً .

روى أبو هريرة ، أن النَّبي ﷺ قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ( يعني أمة الدعوة ) يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار »[2] .

فحتم على الناس جميعاً : من كان في زمن النَّبي ﷺ ، ومن يأتي بعده إلى يوم القيامة ، أن يؤمنوا به ويصدقوا رسالته ، وسواء في ذلك أهل الكتاب وغيرهم كما يدلُّ عليه الحديث المتقدم .

قال تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلامُ ﴾[3] .

---

(١) رواه البخاري ، وهو سيِّد الاستغفار .

(٢) رواه مسلم .

(٣) آل عمران ١٩/٣

وقال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾(٢) .

**٢ ـ توبة عن المعاصي التي بينه وبين ربّه :**

وهذه كذلك واجبة بالندم والاستغفار ، والضراعة إلى الله عزّ وجلّ ، والإكثار من الطاعات والقربات .

**٣ ـ توبة عن الجرائم التي بينه وبين الخلق :**

فهذه لن تصح إلا بردّ المظالم ، وإرجاع الحقوق المغتصبة إلى أصحابها .

**والمظالم أقسام أربعة :**

أ ـ الظلم بالاعتداء على الأنفس وقتلها بغير حق ، فإذا قتل نفساً بريئة عمداً وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره .

ب ـ الظلم المتعلق بالأموال ، مثل الغصب والخيانة ، والتلبيس في المعاملات ، فيجب عليه ردُّ ذلك إلى أصحابه والخروج عنه ، وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤدّ إليهم حقوقهم ويستحلّهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ، ولم يبقَ له طريق عندئذٍ إلا الاستكثار من الطاعات والحسنات ، لتؤخذ منه في الاقتصاص يوم القيامة ، فتوضع في موازين خصومه ، فإنها إن لم تكفِ أخذ من سيئاتهم فتوضع فوق سيئاته ، كما جاء ذلك في الأخبار الصحيحة .

---

(١) آل عمران ٨٥/٣

(٢) سبأ ٢٨/٣٤

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال لم يعرف مالكه ، ولا ورثته ، تصدق به عنه ودعا له ورجا ربّه بالتجاوز والقبول .

جـ ـ الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب :

قال ابن قدامة المقدسي : « فعليه أن يطلب كل واحد منهم وليستحلّه ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي ، إلا أن تكون الجناية فظيعة ، يترتب على التعريف بها شرٌّ أو فتنة ، فليجتهد حينئذٍ في التلطّف به ، والإحسان إليه حتى يحلّه . ولا بد أن يبقى في مثل هذه الحالة ، مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء ، فإنه يفوت أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ... » .

**٤ ـ توبة العابدين والطائعين :**

ولا يَسْبِقَنَّ إلى ذهنك أيها القارئ الكريم أن التوبة مقصورة فقط على المخطئين والمجرمين الذين تقدمت الإشارة إليهم ، فإن أهل الطاعة محتاجون إلى التوبة ، كما يحتاج إليها أهل الذنوب والسيئات ، ومن ظنّ منهم أنه ليس عنده ما يتوب منه ، أو ظنّ أنه مستغنٍ عن المتاب ، فقد زلّ وضلّ .

والتوبة يتطلبها هؤلاء من عدّة جهات :

أ ـ من الخلل الذي يقع في الطاعات نفسها ، فإن أحداً قلّما يأتي بالعبادة المطلوبة مبرأةً من كل عيب ، وإن العبد لينظر في صلاته أو في تلاوة كتاب الله مثلاً ، فيجد أن ضباباً من الغفلة والشرود ، اعترضه في أكثر صلاته وتلاوته ، حتى لا يدري كم صلى وماذا قرأ .

وإذا كانت الصلاة ـ بهذه الصفة ـ خالية عن حضور القلب وخشوع الجوارح ، كانت حركاتٍ ظاهريةً غير مؤدية الهدف المقصود من الصلاة ، وهو تطهير النفس وسمو الروح .

لذا حذَّر النَّبي الكريم ﷺ من الغفلة في الصلاة ، وأشار إلى أن مثل هذه الصلاة ، التي لم تصقل قلب مصليها ولم تقرِّبه من الله ، هي مستوجبة للبعد عن الله وعدم رضاهُ ، يقول عليه الصلاة والسلام : « من لم تَنْهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزْدَدْ من الله إلا بُعداً »[1] .

ومن الممكن أن ترفض له هذه الصلاة وكل ما شابهها من عبادة تؤدى مع الغفلة بتُهْمة ثابتة ، وهي سوء الأدب ورداءة التقدم بها بين يدي الله عزّ وجلّ .

وقد أشار بعضهم إلى ذلك بقوله :

تصلي بلا قلب صلاة بمثلها ... يكون الفتى مستوجباً لِلْعُقوبةِ
تَظَلُّ وقد أتْمَمْتَها غيرَ عالمٍ ... تزيد احتياطاً ركعةً بعد ركعة
فويلك: تدري مَن تناجيه معرضاً؟ ... وبين يدي مَن تَنْحني غيرَ مُخْبِتِ[2]
تخاطبه إياك نعبدُ مقبلاً ... على غيره فيها لغير ضرورة
ولو رَدَّ مَن ناجاك للغير طَرفَه ... تَمَيَّزتْ من غيظٍ عليه وغَيْرةِ
أما تستحي من مالكِ الملكِ أنْ يرى ... صدودك عنه يا قليلَ الرويةِ

---

(١) رواه علي بن معبد ، في كتاب ( الطاعة والمعصية ) ، من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح .

(٢) قال في المصباح : ( أخبت الرجل إخباتاً ) : خضع لله وخشع ، وفي التنزيل ﴿ وبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [ الحج ٢٢/٣٨ ] .

إلهي اهدنا فيمن هديت وخذْ بنـا إلى الحق نهجـاً في سواء الطريقـةِ

ومن أجل ذلك التقصير المستمر شرع الاستغفار في أعقاب الصلوات .

ب ـ من الظن بأن هذه الطاعات هي منتهى حق الله عليه ، وأنه بـأدائها قد فرغت ذمته ودفع لله ثمن نعمه وثمن جنته !

وبَقِيَ على الله سبحـانـه أن يبعث ملائكتـه ، لِتُسَلِّمَ هـذا المغرور مفـاتيـح الجنة ، التي استحقها بعمله ...!

وقد نسي هذا المغرور أن النعمة الواحدة من نعم الله ترجح بعملـه كلـه يوم القيامة ، وأن أحداً لن يدخل الجنة بعمله ، ما لم تشمله رحمة الله تعالى .

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « ما من أحـدٍ يُـدْخِلُـه عَمَلُه الجنة . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّـدني الله برحمته »[(١)] .

جـ ـ من التَّمسك ببعض القربات ، وغَيْرُها أوجبُ منها وألزم ، فيستمسـك بالحسن ويترك الأحسن ، وربما كانت الضرورة ملحةً جداً للأخذ بالأحسن .

فالغني الذي يستكثر من الصلوات ، ويقتصد في النفقات والبذل ، في حين أن المحتاجين والمعوزين ، يئنون حولـه من ألم الحرمـان ، يجب عليـه أن يتوب من هذا المسلك لأن الواقع يحتاج غير هذا السلوك .

والعالم البليغ الذي يصوم الاثنين والخميس ، ويلوذ بـالصمت ، أو بـالإيجـاز في مواطن الزجر والنصيحة ، يجب أن يتوب من هذا المسلك .

---

(١) أخرجه مسلم .

والرجل الذي يعطي ثُمَّ يَمُنُّ ، أو يطلب بعطائه الصدارة بين الناس ، رجلٌ يحبط بهذا المسلك عمله ويضيع أجره ، فعليه أن يتوب .

وهكذا فإن كثيراً من الأعمال الطيبة ، يأتي بها بعض الناس ويؤثرها على غيرها ، لأنها أدنى إلى هواه ، أو أقرب إلى السلامة ، أو يجني من ورائها فائدةً دنيويةً .

فعلى الإنسان أن يحذر من دسائس الشيطان ، وأن يكون عمله مقروناً بالإخلاص والإحسان ، ففي حديث للنّبي ﷺ : « ياأبا ذر خفف الحملة ، فإن العقَبة كؤود ، وأكثِر من الزاد ، فإن السفر طويل ، وأحكم السفينة فإن البحر عميق ، وأخلص العمل ، **فإن الناقد بصير** » . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[1] . ويقول : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[2] .

أخرج مسلم في صحيحه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل اسْتُشْهِدَ ، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك ، حتى استُشْهِدتُ . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء فقد قيل ، ثم أُمِر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار . ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن ، فأُتِي به ، فعرّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته ،

(١) الكهف ١١٠/١٨

(٢) البيّنة ٥/٩٨

وقرأت فيـك القرآن ، قـال : كـذبت ، ولكنـك تعلّمت العلم ليقـال : عـالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أُمِر بـه ، فسُحِب على وجهـه ، حتى أُلقي في النار . ورجل وسَّع الله عليـه ، وأعطـاه من أصنـاف المـال كلـه ، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : مـاتركتُ من سبيل تحب أن ينفـق فيهـا ، إلا أنفقت فيهـا لـك . قـال : كـذبت ، ولكنـك فعلت ليقـال : هو جـواد ، فقـد قيـل . ثم أُمر بـه ، فسُحِب على وجهـه ، ثم أُلقي في النار » .

قال الإمام النووي رحمه الله في التعليق على هـذا الحـديث : قولـه ﷺ في الغازي والعالم والجواد ، وعقـابهم على فعلهم ذلـك لغير الله ، وإدخـالهم النـار ، دليـل على تغليـظ تحريم الريـاء وشـدة عقـوبتـه ، وعلى الحثّ على وجـوب الإخلاص في الأعمال . وفيه : أن العمومـات الواردة في فضل الجهـاد ، إنمـا هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً ، وكذلك الثنـاء على العلمـاء ، وعلى المنفقين في وجوه الخيرات ، كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً . اهـ .

ـ تعجيل التوبة :

ومما يتوجب على المسلم : تعجيل التوبة قبل وقوع العقوبة .

قال العلامة الحافظ ابن الجوزي :

« قـد تَبْغَتُ العقـوبـاتُ ، وقـد يـؤخّرهـا الْحِلْمُ ، والعـاقـل من إذا فَعَـل خطيئة ، بادرها بالتوبة ، فكم مغرورٍ بإمهال العصاة لم يُمْهَلْ » .

وأسرع المعاصي عقوبة : ماكان عن معـانـدة ومبـارزة ، فـإن كانت توجب اعتراضاً على الحق عزّ وجلّ أو منـازعـة لـه في عظمتـه ، فتلـك التي لاتُتَلافى ، خصوصاً إذا وقعت من عارف بالله فإنه يَنْدُرُ إهماله .

قال عبد المجيد بن عبد العزيز : « كان عندنا بخراسان رجل ، كتب مصحفاً بثلاثة أيام ، فلقيه رجل ، فقال : في كم كتبت هذا ؟ فأومأ بالسبابة والوسطى والإبهام وقال : في ثلاث ﴿ وما مَسَّنا مِنْ لُغوبٍ ﴾[1] ، فجفَّت أصابعه الثلاث ، فلم ينتفع بها فيا بعد[2] !

وخطر لبعض الفصحاء أنه يقدر أن يقول مثل القرآن ، فصَعِد إلى غرفة فانفرد فيها ، وقال : أمهلوني ثلاثة أيام ، فصعدوا إليه بعد الثلاث فوجدوه ميتاً ، وقد يَبِسَتْ يده على القلم .

قال عبد المجيد : « ورأيتُ رجلاً كان يأتي امرأته وهي حائض فحاض ! فلما كثر الأمر به تاب فانقطع عنه » .

ويلحق بهذا أن يعير الإنسان شخصاً بفعل ، ولا سيا إن كان الفعل مما لا يدَ له فيه ، كأن يقول له : ياأعمى ياقبيح الخلقة .

وقد قال ابن سيرين : عَيَّرتُ رجلاً بالفقر فَحُبِسْت في دين .

وقد تتأخَّر العقوبة فتأتي في آخر العمر ، وحينئذٍ فيا طول التعتير مع كبر السِّن لذنوب كانت في الشباب ، فالحذَرَ الحذر من عواقب الخطايا ، والبدارَ البدارَ إلى محوها بالتوبة[3] .

ومع التعجيل بالتوبة ، لابدّ من الدوام عليها والندم على ما حصل قبلها ، لتتحقق التوبةُ النصوح ، فليس في غرس الغَرْسة كبير عناء ، إنما المهم أن يرعى هذه الغرسة بالحفظ والسقي ووسائل التنمية ، حتى تؤتي أكلها ويطيب جناها .

---

(١) ق ٥٠/٣٨

(٢) وسبب تعجيل العقوبة له : أنه يعارض الله تعالى في أنه لا يمسّه تعب ..!!

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي ٢٤٧

## مناجاة التوابين :

يطيب للتوابين حينما يقفون في رحاب ربِّهم ، وقد شعروا بنفوسهم تطمئن وبصدورهم تنشرح ، يطيب لهم أن يناجوا ربَّهم داعين خاشعين سائلين من كرمه عزّ وجلّ أن يتقبَّل منهم توبتهم وأن يثبتهم عليها ، ويزيدهم إقبالاً عليه وقُرباً من رضاه .

وإني ذاكر لك أيها الأخ الكريم نماذج من هذه المناجاة القدسية ، التي تشتمل على آيات من القرآن الكريم ، علمنا ربُّنا أن نناجيه بها ، وعلى أحاديث من قول الرسول الكريم ﷺ ، وعلى ابتهالات وتضرُّعات من أقوال الصالحين .

أولاً ـ آيات القرآن الكريم :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوم الدِّينِ ، إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[1] .

﴿ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2] .

﴿ رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً ﴾[3] .

﴿ سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ... رَبَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا

---

(١) الفاتحة ١/١ ـ ٧

(٢) البقرة ٢/٢٠١

(٣) الكهف ١٨/١٠

وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طَاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا ، واغْفِرْ لَنا ، وَارْحَمْنا ، أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى القَوْمِ الكافِرِينَ ﴾[1] .

﴿ رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوهَّابُ ﴾[2] .

﴿ رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[3] .

﴿ رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ ﴾[4] .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[5] .

﴿ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كَانَ غَراماً ﴾[6] .

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[7] .

﴿ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[8] .

---

(١) البقرة ٢/٢٨٥ ـ ٢٨٦
(٢) آل عمران ٣/٨
(٣) الأعراف ٧/٢٣
(٤) الأعراف ٧/١٢٦
(٥) المؤمنون ٢٣/١١٨
(٦) الفرقان ٢٥/٦٥
(٧) الأحقاف ٤٦/١٥
(٨) التحريم ٦٦/٨

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لي ، وَلِـوَالِـدَيَّ وَلِمَنْ دَخَـلَ بَيْتِيَ مـؤمِنـاً وَلِلْمُـؤمِنِينَ وَالمؤمِناتِ ﴾[1] .

ثانياً ـ أحاديث الرسول ﷺ :

« اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

« اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

« اللهم إني أسألك حبّك ، وحبّ من يحبّك ، والعمل الذي يبلغني حبك » .

« اللهم اجعل حبّك أحبّ إليَّ من نفسي ومن أهلي ، ومن الماء البارد » .

« اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليّها ومولاها » .

« اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

« اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبتُ ، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدّمت وما أخّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدّم والمؤخّر ، لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

☆ ☆ ☆

---

(١) نوح ٧١/٢٨

ثالثاً ـ تضرُّعات الصالحين :

أ ـ المناجاة العطائيَّة للعارف بالله الإمام الكبير ابن عطاء الله الإسكندري :

إلهي أنا الفقير في غناي ، فكيف لا أكون فقيراً في فقري ؟ إلهي أنا الجاهل في علمي ، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي ؟

إلهي إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطائك واليأس من بلائك .

إلهي مني ما يليق بلؤمي ، ومنك ما يليق بكرمك .

إلهي وصفتَ نفسك باللُّطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي ، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي ؟

إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ، ولك المنّة عليَّ ، وإن ظهرت المساوئ مني فَبِعَدْلِكَ ، ولك الحجة عليَّ .

إلهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي ؟ وكيف أضام وأنت الناصر لي ؟ أم كيف أخيب وأنت الْحَفِيّ بي ؟

ها أنا أتوسّل إليك بفقري إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ أم كيف أشكو إليك حالي ، وهو لا يخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالي ، وهو منك برز إليك ؟ أم كيف تخيب آمالي ، وهي قد وفدت عليك ؟ أم كيف لا تحسّن أحوالي وبك قامت وإليك ؟

إلهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي ؟ وما أرحمك بي مع قبيح فعلي ؟

إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك ؟

إلهي ما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك ؟

إلهي قد علمتُ باختلاف الآثـار وتنقلات الأطوار أن مرادك أن تتعرّف إليَّ في كل شيء ، حتى لاأجهلك في شيء .

إلهي كلمـا أخرسني لؤمي أنطقني كرمـك ، وكلمـا آيستني أوصـافي أطمعتني مِنَّتُكَ .

إلهي من كانت محاسنه مساويَ ، فكيف لاتكون مسـاويـه مسـاويَ ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى ، فكيف لاتكون دعاويه دعاوى ؟

إلهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقـالاً ، ولا لـذي حال حالاً .

إلهي كم من طاعةٍ بنيتُها وحالة شيدتُها ، هـدم اعتمادي عليهـا عـدلـك ، بل أقالني منها فضلك .

إلهي أنت تعلم ، وإن لم تـدُم الطـاعـة مني فعلاً جـزمـاً ، فقـد دامت محبـةً وعزماً .

إلهي كيف أعزم وأنت القاهر ؟ وكيف لاأعزم وأنت الآمر ؟

إلهي ترددي في الآثار يوجبُ بُعْدَ المزار ، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك .

إلهي كيف يُستدل عليـك بمـا هو في وجوده مفتقر إليـك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ماليس لـك ، حتى يكون هو المظهرَ لـك ؟ متى غبْتَ حتى نحتـاج إلى دليل يدلّ عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟

إلهي عَميَتْ عين لاتراك عليها رقيباً ، وخَسِرَتْ صَفْقَةُ عبـدٍ لم يجعل لـه في حبّك نصيباً .

إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوةِ الأنوار وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها ، مصون السّرّ عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، إنك على كل شيء قدير .

إلهي هذا ذلّي ظاهر بين يديك ، وهذا حالي لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدلُّ عليك ، فاهدني بنورك إليك ، وأقمني بصدق العبودية بين يديك ، وأجِب دعائي بحقك عليك .

إلهي علّمني من علمك المخزون ، وصُنّي بسر اسمك المصون .

إلهي حققني بحقائق أهل القرب ، واسلك بي مسالك أهل الجذْب .

إلهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري ، وباختيارك لي عن اختياري ، وأوقفني على مراكز اضطراري .

إلهي أخرجني من ذلّ نفسي ، وطهّرني من شكّي وشِرْكي قبل حلول رمسي ، بك أستنصر فانصرني ، وعليك أتوكل فلا تكلني ، وإياك أسأل فلا تخيِّبني ، ومن فضلك أرغب فلا تحرمني ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني ، وببابك أقف فلا تطردني .

إلهي تقدّس رضاك عن أن تكون لك علةٌ منك ، فكيف تكون لك علةٌ مني ؟ أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنياً عني ؟

إلهي إن القضاء والقدر غلبني ، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسَرَني ، فكن أنت النصير لي ، حتى تنصرني وتنصر بي ، وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي ، إليك مَهْربي ، أنت الذي أشرقت الأنوارَ في قلوب أوليائك حتى عرفوك

ووحّدوك ، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائـك حتى لم يحبّوا سواك ، ولم يلجـؤوا إلى غيرك ، أنت المـؤنس لهم حيث أوحشتهم العـوالم ، وأنت الـذي هديتهم حتى استبانت المعالم .

ماذا وجد مَن فقدك ؟ وما الذي فَقَد من وجـدك ؟ لقـد خـاب من رضي دونك بديلاً ، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً .

إلهي كيف يرجى سواك ، وأنت ماقطعت الإحسـان ؟ وكيف يطلب من غيرك ، وأنت مابدلت عادة الامتنان ؟

يامَن أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته ، فقاموا بين يـديـه مُتَحَلِّقين ، ويـا من ألبس أولياءه ملابس هيبته ، فقاموا بعزته مستغفرين .

أنت الـذاكر قبل الـذاكرين ، وأنت البـادئ بـالإحسـان مِنْ قَبْـل تـوجّـه العابدين ، وأنت الجواد بالعطاء مِن قبلِ طلب الطـالبين ، وأنت الوهّـاب ، ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين .

إلهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبني بمنك حتى أقبل عليك .

إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك ، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك .

إلهي قد دفعتني العوالم إليك ، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك .

إلهي كيف أخيب وأنت أملي ؟ أم كيف أهان وعليك متكلي ؟

إلهي كيف أستعـزّ وأنت في الـذّلّـة أركـزتني ؟ أم كيف لاأستعـزّ وإليـك نسبتي ؟ أم كيف لاأفتقر وأنت الـذي في الفقر أقمتني ؟ أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني ؟

أنت الذي لا إلـه غيرك ، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء ، وأنت الـذي تعرفت إليّ في كل شيء ، فرأيتك ظـاهراً في كل شيء ، فـأنت الظـاهر لكل شيء .

يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيباً في رحمانيته ، كما صارت العوالم غيباً في عرشه ، محقتَ الآثار بالآثار ، ومحوت الأغيار بمحيطات أملاك الأنوار .

يا من احتجب في سرادقات عزّه ، عن أن تدركه الأبصار ، يا من تجلّى بكمال بهائه ، فتحققت عظمة الأسرار .

كيف تخفى وأنت الظاهر ؟

أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر ؟

☆ ☆ ☆

ب ـ المناجاة الحسنيّة :

روي عن سيّدنا الحسن ابن سيّدنا علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنهما ، أنه استلم الركن فقال :

« إلهي نعّمتني فلم تجدني شاكراً ، وابتليتني فلم تجدني صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أدمت الشدة بترك الصبر ، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم »[1] .

☆ ☆ ☆

(١) الرسالة القشيرية ، ص ٩٧ ، وكتاب الرسالة هذا هو في التصوف للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، وهي عمدة في فنّ التصوف .

جـ ـ مناجاة لبعض الصالحين :

يـا جميـلَ الصنـع ، يـا من كلّما　　دَهم الأمرُ ، جـلا مـا دهمـا
يـا غيـاثَ المستغيثين ويـا　　مـاضِيَ الحكم إذا مـا حكمـا
نفّسِ الأمر علينـا سرعـةً　　إنّ ذا الأمرَ علينـا عَظُما
واسْتَجِبْ منـا دعـانـا كرمـاً　　يـا كريـماً أنتَ ربُّ الكرمـا
وصـلاةُ الله تغشى المصطفى　　مَنْ إلى الخير دعـانـا كرمـا
وعلى الآلِ وصحبٍ عـدَّمـا　　لَمَـعَ البرقُ ومُـزْنٌ قَـدْ هَمَـا

☆ ☆ ☆

د ـ مناجاة وسؤال :

حدّث الأصمعي(١) قال : « بينما أنا أطوف بالكعبة ، وإذا بأعرابي جاء حتى وقف على باب الكعبة ، وقال : « اللهم إني جائع كما ترى ، وناقتي جائعة كما ترى ، وابنتي عريانة ، وزوجتي محتاجة كما ترى . فما ترى ، فيما ترى ، يـا من يَرَى ، ولا يُرَى » !

قال الأصمعي : فمددت يدي إلى دنانير كانت معي ، فقلت : ياسيدي خذ هذه الدنانير فاستعن بها على فقرك . قال : فردّها ، وقال : إن الذي سألناه أبسط منك يداً . قال : فما استتمّ كلامه إلا ومنادٍ ينادي : يافلان ، أدرك عمك فقد مات ، وخلّف أربع مئة ناقة ، وأربع مئة ثور ، وأربع مئة مثقال من ذهب ، فامضِ إليه فخذها ، فإنك وارثه » .

☆ ☆ ☆

---

(١) الأصمعي : هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب ، الأديب ، اللغوي ، النحوي ، الراوية ، المشهور ، نسب إلى جده ( أصْمع ) ، وهو من الأدباء الأفذاذ ، الذين احتلوا المكان الأول بين أساطين الأدب وأئمة اللغة . توفي سنة ٢١٦ هـ عن تسعين عاماً رحمه الله تعالى .

هـ ـ مناجاة وطلب :

حدث الليث بن سعد ، قال : حججت سنة ثلاث عشرة ومئة ، فأتيت مكة ، فلما صليت العصر رقيتُ أبا قُبَيْس ، فإذا برجل جالس ، يدعو ويقول : ياربّ ياربّ ، حتى انقطع نَفَسُه ، ثم قال : يارباه يارباه ، حتى انقطع نَفَسُه ، ثم قال : ياأرحم الراحمين ، ياأرحم الراحمين ، حتى انقطع نَفَسُه ، سبع مرات ، ثم قال : اللهم إني أشتهي العنب فأطعمنيه ، وإن بُرْدَيَّ قد خَلَقا[1] ( يعني ثوبيه ) ، فوالله مااستتم كلامه ، حتى نظرت إلى سلةٍ مملوءةٍ عنباً ، وليس على وجه الأرض يومئذٍ عنب ، وبُرْدَين موضوعين ، فأراد أن يأكل ، فقلت : أنا شريكك ، فقال : وَلِمْ ؟ قلت : لأنك كنت تدعو وأنا أؤمّن على دعائك ! فقال لي : تقدم فكُلْ ولا تخْبَأ منه شيئاً ، فتقدمت فأكلت عنباً لم آكل مثله قط حتى شبعت ، ولم تنقص السلة . ثم قال لي : اختر أي البرْدَين أحب إليك ، فقلت : أنا غني عنهما ، فقال لي : تَوارَ عني حتى ألبسهما ، فتواريت عنه فاتّزَرَ بأحدهما وارتدى بالآخر ، ثم أخذ البردين اللذين كانا عليه ، فجعلهما على يده ، ونزل فتبعته ، حتى إذا كان بالمسعى لقيه رجل ، فقال : أكسني ، كساك الله حلّة من حلل الجنة ، ياابن رسول الله ﷺ ، فدفعهما إليه ، فلحقت بالرجل ، فقلت : من هذا ؟ فقال : جعفر الصادق ، فطلبته لأسمع منه فلم أجده » .

☆ ☆ ☆

(١) خلق الثوب : بلي ، وبابه سهل ، مختار .

و ـ مناجاة واستغاثة لأبي معلق :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يكنى ( أبا معلق ) وكان تاجراً يتّجر بمال له ولغيره ، وكان له نسُك وورع ، فخرج مرة فلقيه لصٌ مُتَقَنِّعٌ في السلاح فقال : ضع متاعك فإني قاتلك ! قال : شأنك بالمال ، قال : لست أريد إلا دمك ، قال : فذرني أصلِّ . قال : صلِّ ما بدا لك ، فتوضأ ثم صلَّى فكان من دعائه :

**« يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعَّالاً لما يريد ، أسألك بعزّتك التي لا تُرام ، وملكك الذي لا يُضام ، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك ، أن تكفيني شرّ هذا اللص ، يا مغيث أغثني ، يا مغيث أغثني ، يا مغيث أغثني » .**

فإذا هو بفارس بيده حربة ، رافعها بين أذني رأسه ، فطعن اللص فقتله ، ثم أقبل على التاجر فقال : من أنت ؟ فقد أغاثني الله بك . قال : إني ملك من أهل السماء الرابعة ، لمّا دعوت سمعت لأبواب السماء قَعْقَعَة ، ثم دعوت ثانياً فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت ثالثاً فقيل : دعاءُ مكروب . فسألت الله تعالى أن يوليني قَتْلَهُ ، ثم قال : أبْشِر واعلم أن من توضأ ، وصلى أربع ركعات ، ودعا بهذا الدعاء ، استجيب له ، مكروباً كان ، أو غيرَ مكروب »[1] .



(١) الإصابة ١٨٢/٤

ز ـ مناجاة مع تدلُّل لرابعة العدوية :

« اللهم إذا كنت أعبدك رهبةً من النار فاحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبةً في الجنة فاحرمنيها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني ياإلهي من جمالك الأزلي » .

ومن مناجاتها قولها :

إني جعلتك في الفؤاد مُحَدِّثي          وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانِس          وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ـ ومن مناجاتها : ماذكره أبو القاسم القشيري ، في الرسالة ، أنها كانت تقول :

« إلهي تحرق بالنار قلباً يحبك ؟ » .

فهتف بها مرة هاتف : ما كنا نفعل هذا ، فلا تظني بنا ظنَّ السوء[1] .

ولو أردت أن أستقصي أخبار التوابين ، ومناجاتهم وتضرعاتهم ، لأغرقت في الإطالة ، فحسبي في هذه النماذج التي وضعتها ففيها عظةٌ وذكرى .

ومن أراد المزيد ، فعليه أن يطلع على ( كتاب التوابين ) للإمام موفق الدين ، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي .

---

(١) رابعة العدوية هذه هي أم الخير ، بنت إسماعيل ، العدوية البصرية ، ـ مولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة ، وكانت توبتها على يد ذي النون المصري ـ وقد ارتاب بعضهم في هذه الرواية ، لبعد العهد بين ذي النون ورابعة ، وكانت كثيرة البكاء والحزن ، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها ، ومَوْضِعُ سُجُودها كهيئة مستنقع ، وسيأتي إن شاء الله في فصل ( حبّ العبد لله ) ماقالته في محبة الله ، توفيت سنة ١٣٥ هـ .

ولكن قبل أن أختم الكلام على التوابين ، رأيت أن أضع أمامك هذه الأبيات ، التي تهيب بالغافي أن يصحو ، وأن يقبل على ربه ، مناجياً مؤملاً الهدى والرشاد :

قم في الدجى يا أيُّها المتعبدُ حتى متى فوق الأسرة ترقدُ
قم، وادعُ مولاك، الذي خلق الدجى والصبحَ وامضِ فقد دعاك المسجدُ
واستغفر الله العظيمَ بذلةٍ واطلب رضاه فإنه لا يَحْقِدُ
واندم على ما فات واندُبْ ما مضى بالأمس واذكر ما يجيء بهِ الغَدُ
واضرع، وقل: يا ربّ عفوَك إنني من دونِ عفوك ليس لي ما يَعْضُدُ
أسفاً على عمري الذي ضيعته تحت الذنوب وأنْتَ فوقي تَرْصُدُ
يا ربّ لم أحسب مرارةَ مَصْدرٍ عن زلةٍ قد طاب منها المَوْرِدُ
يا ربّ قد ثَقُلَتْ عليَّ كبائرٌ بإزاء عيني لم تزل تَتَرَدَّدُ
يا ربّ إن أُبْعِدْتَ عنك فإن لي طمعاً برحمتك التي لا تَبْعُدُ
يا ربّ ما لي غيرُ لطفك ملجأ ولعلني عن بابه لا أطرَدُ
يا ربّ هب لي توبة أقْضي بها ديناً عليَّ به جلالُك يشهدُ
أنت الخبيرُ بحالِ عبدك، إنه بسلاسل الوزر الثقيل مقيَّدُ
أنت المجيبُ لكل داعٍ يلتجي أنتَ المجير لكل من يَسْتَنْجِدُ
من أي بحرٍ غير بحرك نستقي ؟ ولأي باب غير بابك نَقْصِدُ ؟

☆ ☆ ☆

٤ - ومن هذه الأوصاف أيضاً : وصفهم بأنهم هم المتطهرون .

# الفصل الرابع

## حب الله تعالى للمتطهرين

بقوله تعالى : ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] .

لا تنس أيها الأخ الكريم أن أصنافاً ثلاثة تقدمت ، من الذين يحبهم الله عز وجل هم : المقاتلون ـ المحسنون ـ التوابون .

وقد أوضحت لك فيما تقدم الآياتِ التي صرحت بحب هؤلاء ، مع ما تيسر من تفسيرها ، وأقوال العلماء في التعليق عليها .

وهذا هو الصنف الرابع ، من الذين يحبهم الله عز وجل ، وهم المتطهرون .

لقد عُني الإسلامُ بالطهارة والنظافة والتجمل عناية فائقة ، فجاءت آيات كريمة وأحاديث شريفة تمدح المتطهرين وتحض على الطهارة ، وتطلب من المسلم أن يكون طاهراً نظيفاً حسن الهيئة جميل الهندام من غير عُجْبٍ ولا تكبر .

والآية المتقدمة صريحة في أن الله تعالى يحب المتطهرين ، وكفاهم بذلك شرفاً وتقديراً .

ولقد أثنى سبحانه على المتطهرين أيضاً بقوله : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى

---

(١) البقرة ٢/٢٢٢

التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقومَ فيهِ فيهِ رِجالٌ يُحِبّونَ أَنْ يَتَطَهَّروا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرينَ ﴾[1] .

وهؤلاء الذين نالوا هذا الشرف الكبير بثناء الله عليهم وحبه لهم ، هم قوم من الأنصار ، كانوا يحرصون على نظافة ثيابهم وأبدانهم ، وملازمة مسجدهم الذي أسس على التقوى من أول يوم وضع ، وهو يوم الاثنين ، حين قدوم النبي ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة ، والمسجد هو مسجد قباء ، كما في صحيح البخاري ، فصلى فيه النبي الكريم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج صبيحة الجمعة فدخل المدينة .

روى ابن خُزَيْمة في صحيحه ، عن عويمر بن ساعدة « أنه ﷺ أتاهم في مسجد قباء ، فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطُّهور ، في قصة مسجدكم ، فما هذا الطّهور الذي تَطهَّرون به ؟ قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلاّ أنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون ... فغسلنا كما غسلوا » .

وفي حديثٍ رواه البزار ، فقالوا : « نُتْبِعُ الحجارةَ بالماء ، فقال ﷺ : هو ذاك ، فَعَلَيْكُموه »[2] .

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطهارة ثيابه ، إرشاداً وتعليماً لأمته ، فقال عز وجل : ﴿ ... وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[3] أي طهّر ثيابك عن النجاسة ، لأن طهارة الثياب والبدن والمكان شرط في صحة الصلاة ، ولأنها في غير الصلاة أولى وأحب ، لأن المؤمن طاهر طيب لا يليق به أن يحمل خبثاً .

---

(١) التوبة ١٠٨/٩

(٢) يريد ﷺ : أن الله تعالى أثنى عليكم وأحبكم من أجل هذا التمسك بالنظافة والطهارة ، فالزموا وداوموا على هذا .

(٣) المدثر ٤/٧٤

وفي الآية إشارة كذلك إلى تقصير الثياب بحيث لا تمس الأرض ، فتتعرض للنجاسة التي أمر المسلم بالحذر منها والابتعاد عنها .

وفي الحديث : « إزار المؤمن إلى أنصاف ساقيه ، ولا جُناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما كان على أسفل من ذلك ففي النار » .

وورد : « من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » .

قال أبو بكر رضي الله عنه : « يا رسول الله ، إن أحد شقي إزاري يسترخي ، إلا أني أتعهد ذلك منه ، فقال رسول الله ﷺ : لستَ ممن يصنعه خيلاء » .

وفي الحديث : « الطُّهور شطر الإيمان ... »[1] .

وفي جعل الطهارة شرطاً لصحة الصلاة حكمة معقولة مقبولة ، ذلك لأن الصلاة هي ركن من أهم أركان الإسلام وعماد هذا الدين . والمسلم حينما يؤدي هذه العبادة إنما يكون بين يدي ربه يخاطبه ويناجيه ، وخليق بمن يكون في حضرة الملك أن يكون نظيفَ الظاهر ، فكذلك من يكون في حضرة ملك الملوك ، ورب العالمين وعالم الخفايا والأسرار ، أن يكون بين يديه نظيفاً طاهر الظاهر ، كما يكون نقي الباطن سليم السريرة مخلصاً في عبادته لله رب العالمين .

والطهارة قسمان : طهارة السرائر ، وطهارة الظاهر . فطهارة السرائر : تطهير القلب من الأخلاق المذمومة ، والرذائل المقوتة : كالنفاق والرياء والحسد ، وتطهيره أيضاً مما سوى الله عز وجل .

(١) من حديث أخرجه مسلم في صحيحه .

وقد وجّه الإسلام اهتماماً كبيراً بشأن الطهارة المعنوية ، لأنها أهم بكثير من الطهارة الظاهرة ، ولأنها هي الأصل ، فمتى طهُر الباطن من الأخلاق المذمومة ، ظَهَرَتْ آثاره على الأعضاء وصلح الجسم كله ، كما جاء في الحديث : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلَحت صلَح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ، ألا وهي القلب »[1] .

والقلب هو محل نظر الرب سبحانه كما ورد في الصحيح عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[2] .

ولمّا كان للقلب هذه المكانة ، عُنِيَ الصالحون بنظافته وتطهيره ، وبيّن العلماء أنه مَلِك والأعضاء رعيته ، فمتى صلح صلحت الرعية ، ومتى فسد فسدت الرعية ، وذلك ما صرح به حديث النبي الكريم ﷺ المتقدم .

قال الإمام النووي رضي الله عنه : « قال العلماء : البدن مملكة النفس ومدينتها القلب ، وسط المملكة ، والأعضاء كالخدم ، والقوى الباطنة كضياع[3] المدينة ، والعقل كالوزير المشفق الناصح ، والغضب صاحب الشرطة ، وهو عبدٌ مكار خبيث ، يتمثل بصورة الناصح ، ونصحه سُمٌّ قاتل ، ودأبه - أبداً - منازعة الوزير الناصح ، والقوة المخيلة في مقدمة الدماغ كالخازن ، والقوة المفكرة في وسط الدماغ ، والقوة الحافظة في آخر الدماغ ، واللسان كالترجمان ، والحواس الخمس جواسيس ، وقد وُكّل كلّ واحد منهم

(١) من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بيّن .. » الحديث .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب البر والصلة رقم ٣٤

(٣) ضياع : بكسر الضاد جمع ضيعة . مختار .

بصنيع من الصناعات ، فوكّل العين بعالَم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، وكذلك سائرها فإنها أصحاب الأخبار ، ثم قيل : هي كالحجَبة ، توصل إلى النفس ما تدركه . وقيل : إن السمع والبصر والشم كالطاقات تنظر منها النفس .

فالقلب هو الملك ، فإذا صلَح الراعي صلحت الرعية ، وإذا فَسَدَ فَسَدَتْ الرعية .

وإنما يحصل صلاحه بسلامته من الأمراض الباطنة : كالغل والحقد والحسد والشح والبخل والكبر والسخرية والرياء والسمعة والمكر والحرص والطمع وعدم الرضا بالمقدور . وأمراض القلب كثيرة تبلغ نحو الأربعين ، عافانا الله منها وجعلنا ممن يأتيه بقلب سليم » اهـ .

أما طهارة الظاهر ، فقد رسم لها الإسلام أسساً وقواعد ، منها ما جعله فرضاً على المسلم كالوضوء والغسل من الجنابة وإزالة النجاسة ، ومنها ما رغب فيه وندب إليه ، الأمر الذي يجعل الإنسان نشيطاً دائماً ، بعيداً عن الأرْجاس والأنْجاس ليصبح جميل الظاهر نقي الباطن ، وبالتالي ليتمتع بصحة البدن وقوة الجسم ...

وكما حضَّ الإسلام على طهارة البدن والثوب ، حضَّ على طهارة البيوت والأفنية ، وقد تقدم أن طهارة مكان الصلاة شرط في صحتها .

أخرج الترمذي عن صالح بن أبي حسان ، قال : سمعت سعيد بن المسيّب يقول : « إن الله طيّب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فَنَظِّفوا ـ أراه قال ـ أَفْنِيَتَكُم ، ولا تَشبهوا

باليهود ، قال : فذكرت ذلك لمهاجرِ بنِ مِسْمارٍ ، فقال : حَدَّثنيه عامرُ بن سَعْد عن أبيه عن النبي ﷺ مثله ، إلا أنه قال : نظفوا أفنيتكم »[1] .

والذي يتتبع التشريعات الإسلامية المتعلقة بالطهارة وبصحة الأبدان ، يلاحظ أنّ الإسلام فرض على أهله كثيراً من الأصول ، التي يعتبرها الطب الحديث اليوم من القواعد الأولية التي تصلح لدفع أكثر الأمراض قبل وقوعها ، وللتخفيف من حدتها إذا وقعت ، وقد مشى الإسلام بإرشاداته هذه على القاعدة التي تقول : « الوقاية خير من العلاج ، أو : درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

وبعد فقد تكفلت كتب الفقه الإسلامي ، بإيضاح هذه المتطلبات من أصول الطهارة والنظافة فشرحتها ، وبينت فوائدها للمرء في الدنيا وفي الآخرة .

فمن أراد الاستزادة ، فما عليه إلا أن يتناول بعضاً من هذه الكتب ، وهي ميسورة والحمد لله ، ليرى فيها العجب العُجاب ، من تعاليم هذا الدين العظيم وإرشاداته .

٥ ـ ومن هذه الأوصاف : وصفهم بأنهم هم المتقون .

---

(١) الترمذي جزء ٤ / باب ماجاء في النظافة .

# الفصل الخامس

## حب الله تعالى للمتقين

في قوله تعالى : ﴿ ... فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

التقوى في اللغة : قلة الكلام ، حكاه ابن فارس ، ومنه الحديث : « التقي مُلْجَمْ ، والمتقي فوق المؤمن والطائع » وهو الذي يتقي بصالح عمله ، وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه ، بما تجعله حاجزاً بينك وبينه ، كما قال النابغة :

سقط النصيف[2] ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتَّقَتْنا باليد

وقال آخر :

فألقت قناعاً ، دونه الشمس ، واتَّقت ... بأحسن موصولين : كفٌّ ومِعْصَمِ

وخرّج أبو محمد عبد الغني الحافظ ، من حديث سعيد بن زَرْبي ، أبي عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَةٍ عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ عن ابن مسعود ، قال : قال يوماً لابن أخيه : يا ابن أخي ترى الناس ما أكثرهم ! قال : نعم ، قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تَقي ، ثم قال : يا ابن أخي ترى الناس ما أكثَرهم ! قلت : بلى ، قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم .

---

(١) آل عمران ٣/٧٦ . ومن مراجع هذا البحث : القرطبي ، وشلتوت ، وطبارة ، والشبشيري .

(٢) النصيف : ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها يحجر أبصار الناس عنها .

قال أبو يزيد البسطامي : « المتقي : مَنْ إذا قال ، قال لله ، وإذا عمل ، عمل لله » .

وسأل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أُبَيّاً عن التقوى ، فقال : « هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : شمّرت وحذِرت ، قال : فذاك التقوى » .

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز ، فنظمه بقوله :

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُّقَى
واصنع كماشٍ فوق أرْ ضِ الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرةً إنّ الجبال من الحصى

والتقوى فيها جماع الخير كله ، وهي وصية الله تعالى في الأولين والآخرين : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنا الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيّاكُمْ أنْ اتَّقوا اللهَ ﴾[1] .

وهي خير ما يستفيده الإنسان ، كما قال أبو الدرداء :

يريد المرء أن يؤتَى مُناه ويأبى الله إلاّ ما أرادا
يقول المرء : فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

قال ابن الوردي :

اتق الله فتقوى الله ما خالطت قلبَ امرئٍ إلا وصل
ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما مَنْ يتقي الله البطل

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان يقول :

(١) النساء ٤/١٣١

« ما استفاد المؤمنُ بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة ؛ إنْ أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله » .

لقد عُني القرآن الكريم بالتقوى عناية كبرى ، وأكثر من الأمر ، وتوجيه النفوس إليها ، وكان له في ذلك أساليب متنوعة .

أمر المؤمنين بتقوى الله تعالى والتمسك بأسبابها ، حتى يأتيهم الموت وهم عليها ، فقال : ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمَنوا اتّقوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَموتُنَّ إلاّ وأنْتُمْ مُسْلِمونَ ﴾[1] .

وذلك يكون بالتوجه إلى الله وحده بالعبادة ، واجتناب ما حذر من الشرك ، والخروج عن شرائعه وأحكامه العادلة .

ووصف القرآنُ التقوى بأنها صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذي ، سواء أكان متصلاً بها أم بجميع الخلق ، والابتعاد عن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة ، التي بها كماله في جسمه وروحه .

ولهذا وصف الله المتقين بأنهم : مَن تَحلّوا بالفضائل الإنسانية الحقة ، فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أنْ تُوَلوا وجوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والْمَلائِكَةِ ، والكِتابِ والنَّبِيينَ ، وَآتى المالَ عَلى حُبِّهِ ذوي القُرْبى واليَتامى والْمَساكينَ ، وابْنَ السَّبيلِ ، والسّائِلينَ وَفي الرِّقابِ وأقامَ الصَّلاةَ وَآتى الزَّكاةَ والموفونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدوا والصّابِرينَ في البَأْساءِ والضَّراءِ وَحينَ البَأْسِ أولئِكَ الّذينَ صَدَقوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقونَ ﴾[2] .

فأنت ترى أن المتقين هم الموصوفون بهذه الصفات السامية .

(١) آل عمران ١٠٢/٣

(٢) البقرة ١٧٧/٢

## ثمرات التقوى :

وقد أوضح القرآن الكريم أن للتقوى ثمراتٍ يانعةً ، تعود على المتقين بالحفظ والأمن والتكريم ...

ـ منها : أن التقوى تجعل الإنسان في أمن من الخوف والحزن يوم القيامة ، والنصر والتوفيق في هذه الحياة ، فقال تعالى : ﴿ ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذينَ آمَنوا وَكانوا يَتَّقونَ ، لَهُمْ البُشْرى في الحياةِ الدُّنْيا وَفي الآخِرَةِ ﴾(١) .

ـ ومنها : تفريج الأزمات وحلُّ المشكلات ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ ﴾(٢) .

ـ ومنها : تنوير البصيرة ، فيتبين المتقي ما التبس من الأمور ، ويفرق بين الحق والباطل ، ليتبع الحق ويتجنب الباطل ، قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا إنْ تَتَّقوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذو الفَضْلِ العَظيمِ ﴾(٣) .

هذا نزر يسير من صفات المتقين ، وثمراتها في الأفراد والجماعات ، لذلك نال المتقون هذه المراتب العالية ، وفازوا بأعظمها فخراً واعتزازاً ، وهو حبٌّ الله تعالى لهم ، وإعلان هذا الحب في الكتاب العظيم :

﴿ فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقينَ ﴾(٤) .

---

(١) يونس ١٠/٦٢ ـ ٦٤

(٢) الطلاق ٦٥/٢ ـ ٣

(٣) الأنفال ٨/٢٩

(٤) آل عمران ٣/٧٦

# الفصل السادس

## حب الله تعالى للصابرين

في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾[(١)] .

الصبر من الفضائل الْخُلُقِية التي يتحلى بها الإنسان ، وهو النفحة الروحية التي يعتصم بها المؤمن فتخفف من بأسائه ، وتدخل إلى قلبه السكينة والاطمئنان ، وتكون بلسماً لجراحاته التي يتألم منها ، فالصابر يتلقى المكاره بالقبول ، ويراها من عند الله تعالى .

وعند التأمل نرى العناية الإلهية ، تسوق إلينا الشدائد لحكمة عالية ، والجاهل هو الذي يضجر ويحزن ويكتئب ، أما العاقل فيلتمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد .

ولولا الصبر لانهارت نفس الإنسان من البلايا التي تنزل به ، ولأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة ، وأصبح في حالة يكفر فيها بالقيم الأخلاقية ، فضلاً عن أنه يصبح عنصر شر لا نفع منه وعضواً فاسداً يجب بتره .

عني القرآن الكريم بالصبر ومدحه ورفع منزلته ، وأثنى على المتحلين به ثناء لا مزيد عليه ، وجاء ذكره في أكثر من تسعين موضعاً ، ولم تذكر فضيلة أخرى بهذا المقدار ، وهذا يدل على عظم أمره ، لأنه أساسُ كثيرٍ من الفضائل

---

(١) آل عمران ١٤٦/٣ ، ومن مراجع هذا البحث : التصوف الإسلامي للدكتور زكي مبارك ، وتفسير القرطبي ، وروح الدين الإسلامي لطبارة ، ومنهاج القاصدين وغيرها .

بل هو أمها ، لأنه يربي ملكاتِ الخير في النفس ، فما من فضيلة إلا وهي محتاجة إليه .

فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد .

والعفاف هو الصبر عن الشهوات .

والحلم هو الصبر على المثيرات .

والكتمان هو الصبر على إذاعة الأسرار ، وهكذا نجد كل خصلة خير تحتاج إلى الصبر .

لذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

قال الطبري : وصدق عليٌّ رضي الله عنه ؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، فمن لم يصبر على العمل بجوارحه ، لم يستحق الإيمان بالإطلاق ، فالصبر على العمل بالشرائع ، نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمام له إلا به .

وفي الصحيحين ، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أعطي أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر » .

وقال الحسن : الصبر كنوز الخير لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبد كَرُمَ عنده .

وكان بعض العارفين ، في جيبه رقعة يخرجها كلّ ساعة فيطالعها ، وفيها : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1] .

---

(1) الطور ٥٢/٤٨

## أعظم أنواع الصبر :

وإن من أعظم أنـواع الصبر ، الصبر عنـد الصـدمـة الأولى ، فقـد روى البخـاري عن أنس عن النبي ﷺ قـال : « إنمـا الصبر عنـد الصـدمـة الأولى » . وأخرج مسلم هـذا الحـديث بـأتمّ ممـا في البخـاري . أي : إنمـا الصبر الشـاق على النفس الذي يَعْظُم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها ، فإنه يدل على قوة القلب وتثبته في مقام الصبر .

وقد عدّد سبحـانـه وتعـالى أنواعـاً من البلاء ، يصـاب بهـا الإنسـان ، فـإذا واجهها بالصبر جـاءتـه البشـارة وحصل لـه الفوز . قـال تعـالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَـوْفِ والجـوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْـوالِ والأَنْفُسِ والثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرينَ ، الَّذينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالوا إنّا للهِ وَإنّـا إلَيْـهِ راجِعونَ ، أُولَئِـكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدونَ ﴾(1) .

فقد أفادت الآية الكريمـة ، أن الصـابرين يفوزون بثلاث خصـال لا تتوفر لغيرهم ، وهي :

١ ـ ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ .

٢ ـ ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

٣ ـ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدونَ ﴾(2) .

ـ وصلوات الله عليهم : أن يثني عليهم ويزيدهم تشريفاً وتكريماً .

---

(١) البقرة ١٥٥/٢ ـ ١٥٧

(٢) روى الحاكم وغيره ، أن عمر رضي الله عنه ، لما سمع هذه الآية ، قال : نعم العـدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين ، يعني بالعدلين : الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة : الهدى .

ـ والرحمة : هي ما يكون لهم في نفس المصيبة من لطف الله وإحسانه ، فيكون لهم منها العزاء والرضى والتسليم .

ـ وهدايتهم : هي توفيقهم إلى الحق والصواب فيما ينبغي عمله في أوقات الشدائد ، فلا يستحوذ الجزع على نفوسهم ، ويبقى الأمل في قلوبهم .

## كلمات جامعة تخفف الألم :

وقد جاءت أحاديث كثيرة للنبي ﷺ تبين فضائل الصبر ، متى تأملها المصابون بأي نوع من أنواع المصائب والبلايا هونت عليهم الأمر ، وخففت عنهم وقع المصيبة .

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفّر الله عز وجل بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها »[1] .

وفي حديث آخر : « ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا همّ ولا حزن ولا أذىً ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفّر الله بها من خطاياه »[2] .

وفي حديث ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أيُّ الناس أشدُّ بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد ، حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة »[3] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات ولد

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

العبد ، قال الله تعالى لملائكته : أقبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد »[1] .

ولزيادة الترغيب بالصبر وتلقي القضاء بالرضى ، كره رسول الله ﷺ التضجر ولعنَ الداء وسبَّ الحمى .

فقد حدث جابر بن عبد الله « أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب أو : المسيب ، فقال : مالكِ يا أم السائب ـ أو المسيب ـ تُزَفْزِفينَ[2] ؟ قالت : الحمى لا بارك الله فيها ، فقال رسول الله ﷺ : لا تَسُبّي الحمى ، فإنها تُذهب خطايا بني آدم ، كما يُذهِبُ الكيرُ خَبَثَ الحديد »[3] .

وليس معنى هذا أن الإسلام يُحبِّبُ الآلام ويرغب في الأسقام ، ويدعونا أن نفسح المجال للجراثيم تفتك بأجسامنا وللأمراض تهدّ قوانا ، إن أحداً ذا عقل سليم لا يمكن أن يفهم شيئاً من هذا !

إنما معناه ؛ أن يتلقى المسلم النوائب التي تحل به بصبر وثبات كما قلنا ، وأن الإسلام يحمد لأهل البلوى وأصحاب المتاعب رباطة جأشهم ، وحسن يقينهم وتعزيهم بثواب الله لهم ، وهو إذ يصيبهم بهذه الأسقام التي يعانونها ، أو الضوائق التي يواجهونها ، إنما يهدف إلى ما تنطوي عليه من امتحان ، يجب اجتيازه بقوة وتسليم لا باسترخاء وتضجر وسخط .

☆ ☆ ☆

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذي في كتاب الجنائز .

(٢) أي ترعدين ، ترجفين .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب .

## طرفة وأدب :

في كتاب ( الطب النبوي ) بمناسبة حديث النهي عن سبّ الحمى ، أورد المؤلف بَيْتَين فيهما سبٌّ للحمى ، وهما :

زارت مكفرةُ الذنوب وودعت تبّاً لها من زائرٍ ومُوَدِّع
قالت وقد عزمت على تَرحالها : ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجعي

ثم يذكر المؤلف أن أحدَ الصالحين مرض بالحمى ، فذكر معنى قول الرسول ﷺ أن الحمى مكفرة الذنوب وأنه نهى عن سبّها ، وذكر قول القائل في ذمها في البيتين المتقدمين ، فقال الرجل الصالح : تبّاً له ( أي لمن سَبَّ الحمى ) لو قال :

زارت مكفرة الذنوب لِصَبِّها أهلاً بها من زائرٍ ومودِّع
قالت وقد عزمت على ترحالها : ماذا تريد؟ فقلت: أن لا تُقْلعي !

لكان متمشياً مع إرادة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم برئ الرجل من الحمى[1] .

## اذكر مصيبة أكبر :

ومما يخفف ألم المصاب ؛ أن يذكر أن هناك مصائب أعظم وبلايا أشد ، وقد عافاه الله تعالى منها .

عن عطاء بن أبي رباح ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أصابَ أحدَكم مصيبةٌ فليذكر مصابه بي ، فإنها من أعظم المصائب » أخرجه السمرقندي في مسنده .

(١) كتاب الطب النبوي .

قال أبو عمر : وصدق رسول الله ﷺ ؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة ، انقطع الوحي وتوقفت النبوة[1] .

وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك ، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه .

قال أبو سعيد : مانفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا .

ولقد أحسن أبو العتاهية في نظمه معنى هذا الحديث ، حيث يقول :

اصبر لكل مصيبة وتجلّدِ ... واعلم بأن المرء غيرُ مُخَلّدِ
أو ما ترى أن المصائب جَمَّةٌ ... وترى المنيةَ للعباد بِمَرْصَدِ
من لم يُصَبْ ممن ترى بمُصيبَةٍ ؟ ... هذا سبيلٌ لَسْتَ فيها بأوحدِ
فإذا ذكرت محمداً ومصابه ... فاذكر مصابك بالنبي محمدِ[2]

## كتمان المصيبة ، وعدم التشكي :

ومما يجدر بالمسلم صاحبِ العقيدة الراسخة واليقين القوي ، أن يكتم مصيبته ولا يشكو ، بل يتقبلها كما قلنا بالرضاء والتسليم ، وما فعلته أم سليم في هذا الصدد أعظمُ مثال يحتذى .

---

(١) لذلك لما زار أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أم أيمن بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسول الله ، قالت : ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء . فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها . اهـ مسلم .

(٢) تفسير القرطبي ١٧٦/٢ ، ومحمد الأول في البيت الأخير هو ابن صديقه الذي يعزيه عنه في هذه الأبيات .

فقد روى أنس بن مالك قال : « مات ابنٌ لأبي طلحة من أم سليم ، فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه ، حتى أكون أنا أحدثه . قال : فجاءت ، فقربت إليه عَشاءً فأكل وشرب ، فقال : ثم تصنعت له أحسن ما كانت تَصَنّع قبل ذلك فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ! أرأيت لو أنّ قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب ، وقال : تركتني حتى تلطختُ ثم أخبرتني بابني . فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لكما في ليلتكما . قال : فَحَمَلَتْ ، قال : فكان رسول الله ﷺ في سفرٍ وهي معه ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طُروقاً[1] ، فَدَنَوا من المدينة ، فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ .

قال : يقول أبو طلحة : إنكَ لتعلم ، يا رب ! أني يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احْتُبِسْتُ بما ترى .

قال : تقول أم سُلَيْم : يا أبا طلحة ! ما أجِدُ الذي كنتُ أجِدُ[2] انطلق ، فانطلقنا ، قال : وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاماً . فقالت لي أمي : يا أنس ! لا يرضعه أحد حتى تغدوَ به على رسول الله ﷺ . فلما أصبح احتملته ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ ، قال : فصادفته ، ومعه مِيسَمٌ[3] ، فلما رآني قال : لعلّ أم سُلَيم ولدت ؟ قلت : نعم ، فوضع المِيسَمَ . قال :

(١) طروقاً : لا يدخلها بليل .
(٢) أي من الطلق .
(٣) الميسم : الآلة التي يوسم بها الحيوان .

وجئت به فوضعته في حجره ، ودعا رسول الله ﷺ بعَجْوةٍ من عجوة المدينة ، فلاكها في فيهِ حتى ذابَتْ ، ثم قذفها في في الصبي ، فجعل الصبي يَتَلَمَّظُهَا[1] ، قال : فقال رسول الله ﷺ : انظروا إلى حُبّ الأنصار التمر . قال : فمسح وجهه ، وسماه عبد الله »[2] .

وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث :

« فخرج أبو طلحة فَقُبِض الصبي ، فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم : هو أسكنُ مما كان ، فقربت إليه العشاء فتعشى ... » إلخ .

أحببت أن أورد هذا الحديث بطوله وتمامه ، لما فيه من فوائدَ كثيرة وأحكام غزيرة ، من أراد الوقوف عليها ، فعليه بما قاله علماؤنا الأعلام في شرحه وإيضاحه .

أما بالنسبة لما يتعلق بموضوع الصبر الذي نحن بصدده ، فقد فعلت هذه المرأة منتهى ما يفعله العاقل الحصيف ، المؤمن ، في مثل هذا الموقف ، الذي تطيش فيه أحلام وترتبك أفهام .



## مكافأة عاجلة :

وكانت المكافأة العاجلة لأم سليم وأبي طلحة أن رزقهما الله غُلاماً باركه

(١) أي يتتبع بلسانه بقيتها ، ويمسح بها شفتيه .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ـ فضائل أبي طلحة حديث ١٠٧

رسولُ الله ﷺ وحنكه ، ليكون من بعدُ أباً لعشرةٍ من الأبناء الرجال ، الذين أصبحوا من خيرة العلماء الأخيار والصالحين الأبرار .

☆ ☆ ☆

بخٍ بخٍ لك يا أم سُلَيْم ، لقد صَبَرتِ فتفضل الله تعالى عليك بما كان من ولدك المبارك ، وحَفَدَتِك العلماء .

وحَسْبُكِ أن سُجِّل اسمكِ في الخالدين ، بما قدمت من جهد في جهادِكِ مع رسول الله ﷺ في ( حنين ) وغيرها ، مما سطَّرهُ لكِ التاريخُ بصحائفَ من نور ...

وقد قال العلماء : إن الصبر على ما لا يدخل تحت الاختيار ، كالمصائب في موت الأبناء والأحبة ، وهلاك الأموال وذهاب البصر ، وزوال الصحة ، إن الصبر على مثل هذه البلايا هو من أعلى المقامات ، لأن سنده اليقين ، وقريب منه الصبر على أذى الناس ، كمن يُؤذى بقولٍ أو فعل أو جنايةٍ على نفسه أو ماله ، والصبر على ذلك يكون بترك الانتقام ، والصبر على مثل ذلك فيه منزلة عالية وخير كثير ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِروا وتَتَّقوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضيقُ صَدْرُكَ بِما يَقولونَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابِرينَ ﴾[3] .



(١) آل عمران ١٨٦/٣

(٢) الحجر ٩٧/١٥

(٣) النحل ١٢٦/١٦

## ما يباح من الشكوى :

تقدم أن المؤمن ينبغي ألاّ يتضجر ولا يشكو ، لأنـه إذا أظهر البلوى وضجّ بالشكوى ، فقد ابتعد عن صفة الصـابر الموقن ، وكان كمن يشكو الله تعـالى إلى خلقه ، كما قيل :

وإذا بُليت بعُسرةٍ فـاصبر لهـا    صبر الكرام فـإن ذلـك أحْـزَمُ
لا تشكُـوَنّ إلى العبـاد فـإنمـا    تَشْكـو الرحيمَ إلى الـذي لا يَرحمُ

أمـا إظهـار البلـوى على غير وجـه الشكـوى ، كمن يشرح علتـه للطبيب ، ليشخص المرض أو نحـو ذلـك ، فـإن ذلـك مبـاح ولا يُنـافي الصبر ، فقـد ذكر القرآن الكريم أن أيوب عليه السلام : ﴿ نادى رَبَّهُ أني مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ ﴾[1] ، فاستجاب الله له فكشف ما به من ضر ، ولم يخرج بـذلـك عن الصبر ، لأن الله عز وجل أثبت أنه صابر ، فقـال : ﴿ إنّـا وَجَـدْنـاهُ صـابِراً نِعْمَ العَبْدَ إنَّهُ أَوابٌ ﴾[2] .

## نماذج من المؤمنين الصابرين :

في نهاية البحث عن صفات الصابرين ، رأيت أن أقدم لـك قـارئي العزيز نماذج من مؤمنين ابتلوا فصبروا ، ليكونوا من الذين ينالون محبة الله ، وبالتالي جنته ورضاه .

### ١ ـ أبو سفيان رضي الله عنه :

أخرج ابن عساكر عن سعيد بن عبيد الثقفي رضي الله عنه قـال : « رأيت

---

(١) الأنبياء ٢١/٨٣

(٢) ص ٣٨/٤٤

أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه يوم الطائف قاعداً في حائط أبي يعلى ، فأصيبَتْ عينهُ ، فأتى النّبي ﷺ فقال : يارسول الله هذه عيني أصيبَتْ في سبيل الله ، فقال النّبي ﷺ : إن شئت دعوت الله فَرُدَّتْ عليك ، وإن شئت فالجنة . قال : فالجنة »[1] .

☆ ☆ ☆

## ٢ ـ قتادة بن النعمان :

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : « أهدي إلى رسول الله ﷺ قَوسٌ فدفعها لي يوم أُحد ، فرميت بها بين يدي رسول الله ﷺ حتى اندقت سِيَتُها ، ولم أَزَلْ عن مقامي ، نصب وجه رسول الله ﷺ ألقى السهام بوجهي ، كلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله ، ميلت رأسي ووجهي ، لأقي وجه رسول الله ﷺ بلا رمي أرميه ، فكان آخرُها سَهْماً ندرت[2] منه حدقتي على خَدي ، وافترق الجمع فأخذت حدقتي بكفي ، فسعيت بها في كفّي إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآها رسول الله ﷺ دمعت عيناه ، فقال : اللهم إن قتادة قد وَقَى وَجْهَ نبيِّك بوجهه ، فاجعلها أحسن عينيه ، وأحدّهما نظراً . فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً »[3] .

---

(١) حقاً إنه الصبر واليقين اللذان لا يخامرهما شك . أبو سفيان وهو من هو ! يعرض عليه رسول الله ﷺ أن يرد عينه فيصبر ويختار الجنة ، أي صبر هذا ؟ وأي يقين هذا ؟ ولكنه الإيمان يصنع العجائب ولله درّ القائل :

وإذا العقيدة لامَسَتْ قلب امرئ ... كانت له في التضحيات روائع

(٢) ندرت : سقطت عيني من محجرها .

(٣) أخرجه الدارقطني والبيهقي .

وأخرج البغوي وأبو يعلى عن عاصم بن عمر بن قتادة عن قتـادة بن النعمان « أنه أصيبت عينه يوم بدر ، فسالت حدقته على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها فقالوا : لا حتى نستأمر رسول الله ﷺ ، فاستـأمروه فقـال : لا ، ثم دعـا بـه ، فوضع راحته على حدقته ، ثم غَمَزَها ، فكان لا يدري أي عينيه ذهب »[1] .

☆ ☆ ☆

**٣ ـ البراء بن مالك :**

أ ـ يَشُدُّ السلسلة الْمُحماة فتلوح عظام يده !

عن أنس رضي الله عنه قال : « رمى البراء رضي الله عنه بنفسه عليهم ( أي على أهل الحديقة[2] يوم قتال مُسَيْلِمَة ) فقاتلهم ، حتى فتح البـاب ، وبـه بضع وثمانون جراحة من بين رمية بسهم وضربـة ، فحمل إلى رحلـه يُـدَاوَى ، وأقـام عليه خالدٌ رضي الله عنه شهراً[3] .

وأخرج الطبراني عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة رضي الله عنه قال : بينـا أنس بن مـالـك ، وأخوه رضي الله عنهما عنـد حصن من حصون العـدو ، ( يعني بالحريق = العراق ) ، وكانوا يلقون كلاليب[4] في سلاسل محماة ، فتعلق بالإنســان ، فيرفعونـه إليهم ، ففعلوا ذلـك بـأنس ، فـأقبل البراء حتى تَرَاءَى في الجـدار ، ثم قبض بيـده على السلسلـة ، فـما برح حتى قطع الحبل ، **ثم نظر إلى يده ، فإذا عظامها تلوح** ، قد ذهب مـا عليهـا من اللحم ، وأنجى الله أنس بن مالك بذلك »[5] .

(١) الإصابة في معرفة الصحابة .

(٢) الحديقة : بستان لِمُسَيْلِمَة الكذّاب ، حصلت عنده معركة عنيفة وقد قتل مسيلمة فيه .

(٣) الإصابة .

(٤) جمع كُلُّوب : حديدة معوجّة الرأس .

(٥) الإصابة ١٤٣/١

وفي رواية : فعلق بعض تلك الكلاليب بأنس بن مالك رضي الله عنه ، فرفعوه حتى أَقَلُّوه من الأرض ، فأتى أخوه البراء ، فقيل له : أدرك أخاك - وهو يقاتل الناس - فأقبل يسعى ، حتى نزا[1] في الجدار ، ثم قبض بيده على السلسلة وهي تُدَارُ ، فما برح يجرّهم ويداه تدخنان ، حتى قطع الحبل ، ثم نظر إلى يديه فإذا العظام تلوح »[2] .

ب - يقتل أبا جهل

حدّث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : إني لفي الصّف يوم بدر ، إذ التَفَتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السّن ، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه : يا عم ! أرني أبا جهل ؟ فقلت : يا ابن أخي ! ماتصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله ، أو أموت دونه .

فقال لي الآخر ، سرّاً من صاحبه مثله . قال : فما سرّني أنني بين رجلين مكانهما .

فأشرت لهما إليه ، فشدّا عليه مثل الصقرين ، حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء[3] .

وعند ابن إسحاق عن ابن عباس وعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهم ، قال : قال معاذ بن عمرو بن الجموح ، أخو بني سَلِمة : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الْحَرَجَة[4] ، وهم يقولون : أبو الحكم لا يُخْلَصُ إليه[5] ، فلما

(١) نزا : وثب .

(٢) ذكره في المجمع عن الطبراني ، وقال الهيثمي : وإسناده حسن .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) الحرجة : شجرة لا يوصل إليها .

(٥) لا يصل إليه عدو .

سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه[١] ، فلما أمكنني حملت عليه ، فضربته ضربةً أطنت[٢] قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت[٣] إلا بالنواة تطيح من تحت مِرْضَخَةِ النوى[٤] حين يضرب بها . قال : وضربني ابنه عِكْرمة على عاتقي فطرح يدي ، فتعلقتْ بجلدة من جنبي ! وأجهضني[٥] القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي ، وإني لأسحبها[٦] خَلْفي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها .

أرأيتم إلى هذا المشهد الذي تنخلع من رؤيته أفئدة ، وتذهل لهوله قلوب !

بعد أن يقتل أبا جهل عدوَّ رسوله وحبيبه ( محمد صلوات الله عليه وسلامه ) ، ينقض عليه عكرمة ـ قبل إسلامه ـ فيضربه ضربة ، يقطع بها يده من العضد ، وتصبح معلقة بجلده تلوح إلى جانبه فلا يبالي بها ، ويستمر في القتال بيده الباقية عامةَ يومه !

حتى إذا عاقته ، وهي تلوح بجانبه عن متابعة جهاده ، وضعها تحت قدمه ، ثم تمطى فزعها ! واندفع في الميدان ليتم رسالته .

إن اللغة مهما اتسمت به من قوة التعبير لهي عاجزة عن وصف هذا الصبر ، ورسم هذا المشهد !

---

(١) قصدت إليه .
(٢) أطارت .
(٣) ذهبت .
(٤) هي حجر يكسر به النوى .
(٥) غلبني واشتد علي .
(٦) أجرها .

### ٤ ـ عبد الله بن حذافة السهمي ( صاحب البقرة النحاسية ) :

وهذا نموذج آخر من المؤمنين الذين تحلّوا بالصبر الجميل ، فثبتوا للخطوب وارتفعوا فوق الكوارث .

هو الصحابي الجليل ، موضع ثقة الرسول الكريم ﷺ ، شهد معارك فتح أرض الشام ، فأسره الروم في بعض غزواته ، فقال له طاغية الروم : تَنَصّرْ أُشْرِكْكَ في ملكي . فأبى فأمر به فصلب ، وأمر برميه بالسهام ، فلم يجزع فأُنْزِلَ ! وأمر ملك الروم الطاغية بالبقرة النحاسية[1] ، فأغلى فيها الزيت وأمر بإلقاء أسيرٍ فيها ، فإذا عظامه تلوح ، ثم أمر بإلقاء عبد الله هذا فيها إن لم يتنصر ، فلما ذهبوا به إليها بكى ، فقالوا : قد جزع ! قد بكى ! فقال : ردوه . فقال عبد الله : لا ترى أني بكيتُ جزعاً مما تريد أن تصنع بي ، ولكني بكيتُ حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في الله ! كنت أحبُّ أن يكون لي من الأنفس عَدَدُ كل شعرة فيَّ ، ثم تُسَلَّطُ عليَّ فتفعل بي هذا !

فأعجب به ملك الروم وأحبّ أن يطلقه ، فقال له : قبّل رأسي وأطلقك . فقال : ما أفعل . فقال : تنصَّر وأزوجك بنتي وأقاسمك ملكي . قال : ما أفعل ! فقال : قَبِّل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين .

فقال : أما هذه فنعم .

وقبّل رأس الملك وأطلق معه ثمانين من المسلمين ، فلما قدموا على عمر بن الخطاب ، قام إليه عمر رضي الله عنه فقبّل رأسه ، وقال : حقٌّ على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله[2] !

---

(١) كان عنده بقرة من نحاس يغلي فيها الزيت ويلقي فيها من أراد تعذيبه !

(٢) المصادر : البيهقي ، ابن عساكر ، الإصابة ، أسد الغابة ، قادة فتح الشام .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله ، فيقولون : قبّلت رأس علج ؟! فيقول لهم : أطلق الله بتلك القُبْلَة ثمانين من المسلمين .

« كان عبد الله هذا صلب العقيدة راسخ الإيمان ، له عقلية راجحة ومنطق سليم ، كلٌّ ذلك جعله موضع ثقة الرسول ﷺ ، فبعثه سفيراً لكسرى ، يحمل إليه رسالة النبي ﷺ ويدعوه إلى الحق والهدى .

وقد صمد صمود الأبطال ، وصَبَرَ صَبْرَ المجاهدين ، دفاعاً عن عقيدته ، عندما تعرض لمحنة الأسر والتعذيب ، فقد حاول الروم بالوعد تارة ، وبالوعيد أخرى ، وبالتعذيب القاسي ، أن يُثْنوه ولو بالظاهر عن عقيدته ، ولكنه أعرض عن الوعد واستهان بالوعيد ، وصمد للتعذيب الوحشي ، حتى انهارت أعصاب معذبيه ، فأطلقوا سراحه وخرج هو من محنته مرفوع الرأس موفور الكرامة »[١] .

☆ ☆ ☆

## ٥ ـ مرحباً للتهنئة !!

وهذه ( مُعاذَة العدوية ) يُقْتل ابنها في غزاة ، فيجتمع النساء عندها ، فتقول لهن : « إن كنتن جِئْتُنَّ لتُهنِّينني فمرحباً بكن ، وإن كنتن جِئْتُنَّ لغير ذلك فارجعن !! »[٢] .

والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تستقصى ، وفي القليل الذي ذكرناه دلالة على الكثير الذي يعجزنا .



(١) قادة فتح الشام ومصر ، اللواء الركن محمود شيت خطاب .

(٢) ابن قدامة المقدسي .

ومما هو جدير بالذكر : أن العرب في جاهليتهم ، وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً ، كانوا يتحاضون على الصبر ويعرفون فضله ، ويَعيبونَ الجَزَعَ ويُعَيِّرون أهله ، إيثاراً للْحَزْم وتَزَيُّناً بالحلم ، وطلباً للمروءة وفراراً من الاستكانة إلى حسن العزاء ، حتى إن كان الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يعرف ذلك في وجهه .

يصدق ذلك ما جاء في أشعارهم ونُمِيَ من أخبارهم .

قال دُرَيْدُ بن الصِّمة في مَرْثِيَّتِهِ أخاه عبد الله :

قليلُ التَّشَكّي للمصيبات حافظٌ　　　مع اليوم أدبار الأحاديث في غد

غير أنَّ الإسلام صحح هذه النظرة وسما بها إلى مقام رفيع ، فإذا كان الجاهلي يتخلق بالصبر ليقال عنه : إنه صابر ، وليحظى بأحاديث الناس الحسنة فيه من بعده ، فإن الإسلام جعل الصبر المحمود هو الذي يطلب به رضاء الله وثوابه الذي وعد به الصابرين ... وقد مرّت الإشارة إلى ذلك .

ولو لم يكن للصابرين غيرُ قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ﴾[1] لكفى ! حيث فيها هذا الوعد بعطاءٍ لا حدّ له ، من كريم جواد لا يخلف الميعاد .

٧ ـ ومن هذه الأوصاف : وصفهم بأنهم هم المتوكلون .

---

(١) الزمر ١٠/٣٩

# الفصل السابع

## حب الله تعالى للمتوكلين

في قوله تعالى : ﴿ فَإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلينَ ﴾[1] .

التوكل على الله تعالى يعني الثقة به والاعتماد عليه ، والإيقانَ بأن قضاءَه ماضٍ ، واتباعَ سنة نبيه ﷺ ، في السعي فيما لا بدّ منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدوّ وإعداد عُدة ، واستعمال كلِّ ما تقتضيه سُنَّة الله المعتادة .

والمشي مع الأسباب ، والسير على سنة الله المعتادة في نظام هذا الكون لا ينافي التوكل ، غير أن المطلوب من العاقل أن لا يعتمد على الأسباب بل يأتي بها ويعتمد على مُسَبِّبها .

ولو كان فعل شيء من هذه الأسباب ينافي التوكل ، لكان أمر الله تعالى لرسوله بالمشاورة في قوله : ﴿ وَشاوِرْهُمْ في الأَمْرِ ﴾[2] منافياً للتوكل .

قال الإمام الرازي : « دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه ، كما يقول بعض الجهال ، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافياً للتوكل ، بل

(١) آل عمران ٣/١٥٩

(٢) آل عمران ٣/١٥٩

التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعوّل بقلبه عليها ، بل يعَوّل على عصمة الحق ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلينَ ﴾[(١)] » . اهـ .

☆ ☆ ☆

من أجل ذلك أجاب رسول الله ﷺ الأعرابي الذي سألـه حين أراد دخول المسجد ومعه ناقته : أتركها وأتوكل ، أم أعقلها وأتوكل ؟ أجابه عليه الصلاة والسلام بقوله : « اعقلها وتوكل »[(٢)] .

وقد نبّه الله سبحانه المجاهدين إذا ضمتهم جنبات الميدان أن يكون انتباههم حاداً ، ويقظتهم بالغة ، فقال : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا خُذوا حِذْرَكُمْ فَانْفِروا ثُباتٍ أو انْفِروا جَميعاً ﴾[(٣)] .

وقد رأينا في الآية الأولى من هذا البحث أن العزم قُدِّمَ على التوكل . والعزم ، كما قال الإمام القرطبي : « وهو الأمر المرَوَّى ، المنَقَّح ، وليس ركوبُ الرأي دون رَوِيَّةٍ عزماً » .

فالأمر بالتوكل جاء بعد إعلان المشاورة والتروي والتنقيح ، وهذا ما يكون في طاقة الإنسان ، وفي حدود مقدرته ، أما ما وراء ذلك من تنفيذ الأمر ، وتحقيق النصر ـ مثلاً ـ فإن ذلك خاص بالعلي القدير ، الذي نتوكل ونعتمد عليه ، في إنجازه وتحقيقه .

رأى أحد الأئمة فقيراً ينطلق إلى الحج دون زاد ، فسأله : أين زادك ؟

---

(١) آل عمران ١٥٩/٣

(٢) رواه الترمذي .

(٣) النساء ٧١/٤

فقال : أنا متوكل على الله ! فقال له : أمسافرٌ أنت وحدك ؟ قال : بل مع القافلة . فقال له : أنت متوكل على القافلة !

وقد صدق هذا الإمام بما قال ، فإن هذا الإنسان متأكلٌ ، لا متوكل ، وهو جاهل بالإسلام ، ومعرِفتُه بالله غامضة ، يشوبها حمق كثير .

فموسى وأخوه هارون عليهما السلام ، قد شعرا بالخوف عندما أمرهما سبحانه أن يذهبا إلى فرعون وينصحاه ، فقالا : ﴿ رَبَّنا إنَّنا نَخافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أوْ أنْ يَطْغى ، قالَ لا تَخافا إنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وَأرى ﴾(١) .

إن الشعور بصحبة الله ، هو المؤنس في هذه الوحشة ، وهو المشجع في هذه الرهبة ، وذاك معنى التوكل في تلك المواقف .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً وتروح بطاناً »(٢) .

هذا الحديث يرشدنا إلى المساعي العملية ، التي يتوجب على كل مخلوق أن يقوم بها ، حسب النظام الذي رسمه الحق عز وجل لهذا الكون .

فإن للطير ككل ذي حياة ، في سعيها على أرزاقها وأقواتها ، حركاتٍ مَوْزونَةً وطباعاً منتظمة ؛ تبكر لها بكور الغراب وتجري لها كخيل الرهان ، ثم تأوي في نهايتها إلى أوكارها وأعشاشها ، شاكرة المولى عز وجل على ما سخر لها من رزق .

---

(١) طه ٢٠/٤٥ ـ ٤٦

(٢) ابن ماجه .

وإن هذا لهو أسعدُ حال ، ترتاح إليه النفوس ويوافق ناموس الله تعالى في خلقه .

فالحديث ذاته يدل على الحركة والدأب والسعي ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : تغدو خِماصاً وتروح بطاناً ، فهي قد ذهبت مبكرةً وبطونها فارغة ، فالتمست الرزق ، وسعت حسب ما رسم لها من التمسك بالأسباب ، فعادت في المساء وقد امتلأت مما يسر الله لها من الرزق .

أما الذين يفهمون من الحديث أنه يدل على ترك السعي والقعود عن العمل ، فأولئك قد جاوزوا الحقيقة وابتعدوا عن الصواب .

والله سبحانه يقول : ﴿ فَامْشُوا في مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وإلَيْهِ النُّشورُ ﴾[1] . وقد جاء في الحديث : « بورك لأمتي في بكورها » .

فواجب المؤمن أن يكون مع الله تعالى في القلب والحب والتوكل وطلب العون ، وجَوارحه متأدبة بأدب الشرع في التمسك بالأسباب والعمل بها .

وإلى هذا الذي ذكرناه تشير الآيتان الكريمتان : ﴿ وَفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وما توعَدونَ ﴾[2] مع قوله تعالى : ﴿ فَامْشوا في مَناكِبِها ﴾[3] .

إن الذين يفهمون أن التوكل هو ترك العمل والقعود عن الكسب ، إنما يسيئون إلى الإسلام ويتجنون على تعاليمه ، حيث إن النصوص الصريحة والأعمال الواقعية تدحض افتراءاتهم ، وتبين خطأهم ، فالإسلام دين العمل والجد والقوة !

---

(١) الملك ١٥/٦٧

(٢) الذاريات ٢٢/٥١

(٣) الملك ١٥/٦٧

أليس قد قال رسوله الكريم ﷺ : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[١] .

وحديث الأنصاري : جاء يسأل رسول الله ﷺ ، فلم يُقِرَّه على المسألة ، وسهّل له طريق العمل بأن هيّأ له قدوماً ، وأمره أن يذهب فيحتطب ، وقد اكتسب الرجل ، وعاد إلى النّبي مغتبطاً بعمله وكسبه ، فقال له رسول الله ﷺ : « هذا خير لك من أن تسأل الناس أعطوك أو منعوك » . وفي رواية أخرى : « هذا خير لك من أن تجيء المسألة نُكتةً سوداء في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مُدقع ، أو لذي غُرم مُفْظِع ، أو لذي دم موجع »[٢] .

هذا الحديث معروف ، وهو أبلغ درس يلقيه الرسول الأعظم ﷺ على الناس .

والذي أوجد الرطب في النخلة بغير أوانه للسيدة مريم ، كان سهلاً عليه أن يوصله إليها من غير هزٍّ ، ولكننا نرى أنه سبحانه قال لها : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾[٣] ، ليُعَلِّم عبادَه الأخذ بالأسباب ، حيث شاءت إرادته عزّ وجلّ أن يربط المسببات بالأسباب ، وأن هذا لا يقْدَحُ في الإيمان بقدرته والتوكل عليه .

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه الترمذي .

(٣) مريم ١٩/٢٥ ـ ٢٦

ولو أن إنساناً رغب في ولدٍ لـه وظل يـدعو عشرات السنين ، وهو لم يتزوج فلن يكون له ولد حتى يحدث زوجة ، هكذا قضت سنّة الله في هذا الكون .

وقد ألف محرر المذهب الحنبلي أبو بكر الخلاَّل ، المتوفى سنة ٣١١ هـ رسالـةً أسماها :

« الحثّ على التجارة والصناعة والعمل ، والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل » .

جاء فيها :

قـال الإمـام أحمـد بن حنبل عن أولاده : وقـد أمرتهم أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة .

ومعلـومٌ أن الإمـام أبـا حنيفـة كان تـاجراً ، وتلميـذه أبـو يـوسف ألف في الخراج ، وتلميذه محمد بن الحسن الشيباني ألف في ( الاكتساب ) .

و « سلمان الفارسي لما كان عـاملاً لعمر بن الخطـاب كان إذا خرج عطـاؤه تصدّق به ونَسَجَ الخوص ليأكل من عمل يده »[1] .

أخرج ابن سعد عن النعمان بن حُمَيد رضي الله عنه قال : دخلت مع خالي على سلمـان رضي الله عنـه بـالمـدائن ، وكان أميراً عليهـا لعمر ، وهـو يعمـل الخوص ، فسمعته يقول : أشتري خوصاً[2] بدرهم فأعملـه فـأبيعـه بثلاثـة دراهم ، فأعيـد درهمـاً فيـه وأنفق درهمـاً على عيـالي وأتصـدّق بـدرهم ، ولو أن عمر بن الخطاب نهاني ما انتهيت[3] .

---

(١) الإصابة .

(٢) الخوص : ورق النخل .

(٣) الطبقات ٤/٦٤

وإبراهيم بن أدهم وهو من كبار القوم ، يعرفه الجميع ، ويدعون أنهم يقتدون به ، كان يؤاجر نفسه ، وكان إذا قيل له : كيف أنت ؟ يقول : بخير مالم يتحمل مؤنتي غيري .

وسفيان الثوري خَلَّف مئتي دينار ، وهو زاهد العلماء وسيِّد المتوكلين .

وكان يقول : ماكانت القوة مُذ بعث الله عزّ وجلّ محمداً ﷺ أنفع لأهلها منها في هذا الزمان .

وأروع عظة لإبراهيم بن أدهم وهو من أئمة القوم كما تقدم ، أنه اجتمع مرة في مكة المكرمة بشقيق البلخي الزاهد المشهور ، ومن أئمة القوم أيضاً ، فقال له : مابدوٌّ أمرك الذي بلغك هذا ؟ فقال شقيق : سرت في بعض الفلوات ، فرأيت طائراً مكسور الجناحين في فلاةٍ من الأرض ، فقلت : أنظر من أين يُرزق ؟ فجلست حِذاءه ، فإذا بطير قد أقبل في منقاره جرادة فوضعها في منقار الطير المكسور الجناح ، فقلت في نفسي : يانفس ! الذي قيَّض هذا الطائر الصحيح لهذا الطائر المكسور الجناحين في فلاة من الأرض ، هو قادر أن يرزقني حيثما كنت ، فتركت التكسُّب واشتغلت بالعبادة ، فقال له إبراهيم : ياشقيق ! ولِمَ لاتكون أنت الطائر الصحيح الذي أطعم العليل حتى تكون أفضل منه ؟ أما سمعت عن النّبي ﷺ أنه قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى »[1] ؟

وتشجيع الرسول ﷺ على الزرع والغَرْس ، ومشاركتُه الفعلية لسلمان في غرس ماطُلب منه لتحريره ، وعمل أصحابه من بعده ، كلٌّ هذا دليل ناصع على أن الإسلام دين الجد والعمل .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر .

وبعد ، فإن الإسلام دين القوة ما في ذلك شك ، شارعه : هو الجبار ذوالقوة المتين ، ومُبَلِّغه : هو محمد الصبار ذوالعزيمة الأمين ، وخلفاؤه العمريون : هم الذين ركزوا عروشهم على نواصي الشرق والغرب ، وقوّاده الخالديون : هم الذين ضربوا بفتوحاتهم أروع الأمثلة للرحمة والعدل .

فهل يصح بعد هذا أن يقال : إن التوكل في الإسلام تواكل وتأكّل وكسل ؟

إنه مما قدمنا من أدلة وإيضاحات ، يتبين أن المتوكلين الذين فازوا بمحبة الله تعالى لهم ، هم الذين يربطون قلوبهم في الله ، ويتابعون سعيهم في الأسباب ، فلا تواكل ولا قعود ولا استرخاء . وأولئك هم المفلحون .

٨ ـ ومن هذه الأوصاف أيضاً : وصفهم بأنهم هم المقسطون .

# الفصل الثامن

# حب الله تعالى للمقسطين

في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[1] .

القسط هو العدل ، والقاسطون هم العادلون ، والإقساط مثل القِسط ( بكسر القاف ) : العدل ، يقال : أقسط يقسط إقساطاً ، فهو مقسط إذا عدل ، قال تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[2] .

وفي لغتنا العربية دقائق وروائع .

هذه أَقْسَطَ ، ومشتقاتها بمعنى : ( عدل ) .

أما قَسَطَ يَقْسِطُ ( بِفَتْح الياء وكسر السين ) قسوطاً وقَسْطاً فهو قاسط وهم قاسطون ، كلها بمعنى : جار وظلم ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾[3] .

والمقسطون هؤلاء الذين فازوا بمحبة الله تعالى لهم ، هم الذين نالوا بهذه المحبة السامية درجة عالية يوم القيامة ، وصفها النّبي ﷺ في حديثه الصحيح بقوله :

---

(١) المائدة ٤٢/٥

(٢) الحجرات ٩/٤٩

(٣) الجن ١٥/٧٢

« إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزّ وجلّ ، وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلوا »[1] .

قال الإمام النووي رحمه الله : « وأما المنابر فجمع منبر ، سمي به لارتفاعه ، قال القاضي : يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقية ، على ظاهر الحديث ، ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة ، قلت ( القائل النووي ) : الظاهر الأول ، ويكون متضمناً للمنازل الرفيعة ، فهم على منابر حقيقية ومنازلهم رفيعة .

وبعد أن تكلم رحمه الله في أقوال العلماء عن ( يمين الرحمن ) ، وأنه من أحاديث الصفات ، وأن لها معنى يليق بالله تعالى ، قال : وأما قوله ﷺ : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا[2] . فمعناه أن هذا الفضل إنما هو لِمَنْ عدل فيما تقلّد من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة ، أو نظر على يتيم أو صدقة أو وقف ، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك ، والله أعلم » اهـ .

وحضّاً على القسط وترغيباً في العدل ، أورد مسلم كذلك حديثاً فيه دعاءُ الرسول ﷺ حيث يقول : « اللهم مَن وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه ، ومن وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً ، فَرَفَقَ بهم ، فارفُقْ به » .

وهذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس ، وأعظم الحثّ على الرفق بهم ، وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة .

(٢) وَلُوا : بفتح الواو وضم اللام غير مشدد .

بالعدل قامت السموات والأرض ، وبالعدل تدوم الدول والممالك ، وبالعدل تسعد الأمم والجماعات والأفراد ، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى به في كثير من آياته الكريمة ، قال تعالى : ﴿ واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أنْزَلَ الله مِنْ كِتابٍ وأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ وَالإحْسانِ وَإيتاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[2] .

☆ ☆ ☆

والمراد بالعدل في الآيتين الكريمتين : العدل المطلق ، الشامل لكل حال من الأحوال التي يتعرض لها الفرد في المجتمع ، حاكماً أو محكوماً غنياً أو فقيراً ، قوياً أو ضعيفاً ، رجلاً أو امرأة ، فهم جميعاً خلق الله وذلك الدين هو أمر الله ، الذي أنزله لمصالح عباده وإسعادهم ، كما أراد لَهُم .

وهذا مادلّت عليه الآية في قوله عزّ وجلّ : ﴿ ياأيُّها الَّذينَ آمَنوا كونوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أنْفُسِكُمْ أوْ الوَالِدَيْنِ والأقْرَبينَ إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أوْ فَقِيراً فاللهُ أوْلَى بِهِما فلا تَتَّبِعوا الهَوَى أنْ تَعْدِلُوا وَإنْ تَلْووا أوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبيراً ﴾[3] .

وقد رفع الإسلام من شأن العدل ومجّد الإمام العادل ، وأعلى مكانته حتى تبوأ أعلى مقام بين المؤمنين .

---

(١) الشورى ١٥/٤٢

(٢) النحل ٩٠/١٦

(٣) النساء ١٣٥/٤

ورد عن النَّبي ﷺ أنه قال : « سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ... »[1] .

☆ ☆ ☆

وتطبيقاً لهذه الآيات الكريمة ، أعطى الرسول الناس القود من نفسه ، وأعلن أن من كانت له عنده مظلمة فله أن يقتصّ منه ، وذلك ليلقى الله تعالى بريئاً من مظالم العباد ، وليعطي القدوة من نفسه لمن يتولى الأمر من بعده .

أليس هو ﷺ الذي روى عن ربّه عزّ وجلّ : « يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا ... »[2] .

وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام ، خرج مرة في مرض موته ، فكان مما كلم به الناس قوله : « أيها الناس ، من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فَلْيَسْتَقِدْ مني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فَلْيَسْتَقِدْ منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء فليست من شأني » .

وأخرج ابن إسحاق عن حبان بن واسع عن أشياخ من قومه « أن رسول الله ﷺ : عَدَّلَ صفوف أصحابه ، يوم بدر وفي يده قِدْح يعدل به القوم ، فمرّ بسواد بن غُزَيَّة رضي الله عنه وهو مُسْتَنْتِلٌ[3] من الصف ، فطعن في بطنه بالقِدْح[4] ، وقال : اسْتَوِ يا سواد . فقال : يا رسول الله ! أوجعتني ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متقدم .

(٤) اسم السهم قبل أن يراش ، ويركب نصله . مصباح .

وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني ! فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال : استَقِد . قال : فاعتنقه فقبّل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا ياسواد ؟ قال : يارسول الله ! حضر ماترى ، فأرَدْتُ أن يكون آخر عهدي بك أن يمسّ جِلْدِي جِلْدَكَ ، فدعا له بخير »[1] .

☆ ☆ ☆

وأخرج عبد الرزاق ، عن الحسن قال : « كان رجل من الأنصار يقال له : سوادة بن عمرو رضي الله عنه يَتخَلّق[2] كأنه عرجون[3] ، وكان النّبي ﷺ إذا رآه أنْفَضَ له ( أي : حرك رأسه تعجباً ) ، فجاء يوماً وهو متخلّق ( متطيّب ) ، فأهوى له النّبي ﷺ بعُود كان في يده فجرحه ، فقال له : القصاصَ يارسول الله ، فأعطاه العود وكان على النّبي ﷺ قميصان ، فجعل يرفعها ، فنهره الناس ( زجروه ) وكفّ عنه ، حتى إذا انتهى إلى المكان الذي جرحه رمى القضيب وجعل يقبّله . وقال : يانبي الله ! بل أدعها لك تشفع لي بها يوم القيامة »[4] .

وليس غريباً على نبي الله ومؤسس الدولة الناشئة ، أن يسلك هذا المسلك الدقيق ، في تحقيق العدل والقيام بين الناس بالقسط ، فإنه قد وضع الخطوط العريضة الرفيعة لبناء صرح هذا الإسلام ، على تلك القواعد الراسخة المتينة ، فكانت أعماله وأقواله تطبيقاً دقيقاً لقرآنه العظيم .

---

(١) وانظر أسد الغابة .

(٢) يتطيب .

(٣) كأنه غُصْنٌ .

(٤) أخرجه البغوي كما في الإصابة ٩٦/٢

## نماذج من تطبيقه ﷺ للعدل :

### ١ ـ لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها !

ويروي لنا تاريخنا المشرّف قضيةً من أروع ما يذكر في باب العدل والقسط ، هي قضية المرأة المخزومية ، التي سرقت حُليّاً في زمن رسول الله ﷺ ، وكانت من بيت مجادة وشرف ، فلما أراد الرسول إقامة الحدّ عليها ، عَظُمَ ذلك على المهاجرين ، وقالوا : من يشفع لها عند رسول الله ﷺ ؟ ووقع اختيارهم على أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ ، فتكلم أسامة مع الرسول ﷺ في ذلك .

وأدع الكلام الآن إلى الإمام البخاري ، يروي لنا الحادثة قال : « فلما كلمه أسامة فيها تَلَوَّن وجه رسول الله ﷺ ، وقال : أتكلّمني في حدٍّ من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله ! فلما كان العشي ، قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنما هلك الناس قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، والذي نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها »[١] .

☆ ☆ ☆

### ٢ ـ هلاّ مع صاحب الحق كنتم !

عن أبي سعيد رضي الله عنه ، قال : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ يتقاضاه ديناً كان له عليه فاشتدّ عليه ، حتى قال : أُحَرِّج[٢] عليك إلا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والأربعة .

(٢) أي لا أزال أضيق عليك حتى تقضيني .

قضَيْتَنِي ، فـانتهره أصحـابـه فقـالوا : ويحـك ! تـدري من تكلم ؟ فقـال : إني أطلب حقي ! فقـال النّبي ﷺ : هلا مع صـاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسـل ﷺ إلى خولة بنت قيس ، فقال لها : إن كان عندك تمر فـأقرضينـا حتى يـأتينـا تمر فَنَقْضِيَكِ .

فقـالت : بـأبي أنت وأمي يـا رسـول الله ! فـأقرضتـه فقضى الأعرابي وأطعمه[1] ، فقال : أوْفَيْتَ ، أوْفَى الله لك ! فقال : أولئك خيـار النـاس[2] ، إنه لا قُدسَتْ أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَعْتَع »[3] .

أخرجه ابن ماجه عن أبي سعيد البزار من حديث عائشة ، والطبراني .



هذا نزرٌ يسير جـداً من كثير لا يُحْصَى ولا يُسْتَقْصى ، ممـا كان يفعلـه ﷺ ويقوله بياناً للقسط ودعوة صريحة للعدل .



هذا وقد سار خلفاؤه وأصحابه وتلامذته الـذين تخرَّجوا من هـذه المـدرسـة الخُلُقِيَّـة الجـامعـة ، سـاروا جميعـاً على هـذا النهج القويم ، فـزهت بهم الـدولـة الإسلامية ، وازدهرت بهم العواصم والأقطار ، بما قدّموا للبشريـة من مُثُل حيـة في الإصلاح والإرشاد والجدّ في كل مجال من مجالات الحياة .



(١) أطعمه : أي زاده فوق حقه .
(٢) أي الذين يوفون ماعليهم من حقوق .
(٣) أي من غير أن يصيبه أذى يزعجه .

وكما قدمنا بعضَ المثل التطبيقية من القائد الأعلى والرسول القدوة ﷺ ، فإننا نقدّم بعض المُثُل لخلفائه وتلاميذه الذين استَنُّوا واستَنَاروا بسيرته ، فكانوا من الخالدين .

☆ ☆ ☆

**١ ـ أبو بكر يقدّم نفسه للقصاص :**

أخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، « أن أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه ، قام يوم الجمعة فقال : إذا كان بالغداة فأحضروا صدقات الإبل نقسم ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن ، فقالت امرأة لزوجها : خُذ هذا الخطام ، لعل الله يرزقنا جملاً ، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر ، رضي الله عنهما قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما ، فالتفت أبو بكر فقال : ماأدخلك علينا ؟ ثم أخذ منه الخطام فضربه .

فلما فرغ أبو بكر من قَسْمِ الإبل ، دعا بالرجل فأعطاه الخِطام ، وقال : اسْتَقِدْ ، فقال عمر : والله لا يَسْتَقِيدُ ، لا تجعلها سُنَّة . قال أبو بكر : فمن لي من الله يوم القيامة ؟! فقال عمر : أرْضِهْ . فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة وَرَحْلِها وقَطِيفَةٍ وخمسة دنانير فأرضاه بها » .

☆ ☆ ☆

**٢ ـ متى تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟**

وهذه كلمة عمر بن الخطاب الخالدة ، التي إن دلّت على شيء فإنما تدلُّ على الديمقراطية الحقة ، التي ينعم الناس في ظلها متمتعين بكل معاني الحرية والعدالة والمساواة .

أخرج ابن عبد الحكم عن أنس رضي الله عنه « أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ياأمير المؤمنين ! عائذٌ بك من الظلم ! قال : عذت معاذاً[1] ، قال : سابقت ابن عمرو بن العاص[2] فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويقدَم بابنه معه فقدم ، فقال عمر : أين المصري ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين بل ابن الألأمين .

قال أنس راوي الحديث : فضرب والله ! لقد ضربه ونحن نحبّ ضربه ، فما أقلع[3] عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه ، ثم قال للمصري : ضع على صَلْعة عمرو ، فقال : ياأمير المؤمنين ! إنما ابنُه الذي ضربني وقد اسْتَقَدْتُ منه ، فقال عُمَرُ لعَمروٍ : منذ كم تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

### ٣ ـ قد سَوَّى الإسلام بينكما

وحدثنا التاريخ أن جَبَلَة بن الأيْهَم آخر ملوك غسان حجّ بعد إسلامه ، فبينا هو يطوف بالبيت يجرّ ثوبه ، وَطِئَ رجل من فزارة ثوبه ، فلطمه جبلة فهشَّم أنفه وكسر ثناياه ، فاستعدى الفزاري عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له عمر : إما أن يعفو عنك الفزاري وإما أن يقتصّ منك ، فقال جبلة : أيقتصُّ مني وأنا ملك وهو سوقة ؟

---

(١) أي لجأت إلى من يحميك .

(٢) هو محمد بن عمرو .

(٣) فما كفّ وترك .

قال عمر : دع عنك هذا ، **قد سوّى الإسلام بينكما ، فما تفضله** إلا بالعافية والتقوى .

قال جبلة : ما كنت أظن إلا أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية ، ولما رأى حرص عمر على القصاص ، قال : أنظرُ في أمري الليلة ، ورحل بليل بخيله ورواحله ، ولحق بالشام ثم بالقسطنطينية فتنصّر وبقي عند قيصر ، ويُروَى أنه ندم فيما بعد ، وتمنّى لوأنه استسلم للقصاص ، وفي ذلك يقول :

تنصّرت الأشراف من عار لَطْمَةٍ ... وما كان فيها لو صبرتُ لها ضررْ
تكنفني منها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ ... وبعت لها العين الصحيحة بالعَوَرْ
فياليت أُمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى القول الذي قال لي عمرْ
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيراً في ربيعة أومُضَرْ
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصرْ[1]

☆ ☆ ☆

## ٤ ـ بِعْ الخاتم وأشبِع الجياع !

بَلَغَ عُمرَ بنَ عبد العزيز أن أحد أبنائه اشترى خاتماً بألف درهم ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم ! فَبِعْهُ وأشبع به ألف جائع ، واتَّخِذْ خاتماً من حديد واكتب عليه : ( رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ) .

هؤلاء هم المقسطون الذين حاسبوا أنفسهم ، ووزنوا أعمالهم بالقسطاس المستقيم قبل أن يحاسبوا ، ففازوا بمحبة الله لهم .

☆ ☆ ☆

---

(١) أبو الفداء ١٦٢/١ ، العقد الفريد ٢٥٩/١

وإلى هنا أكتفي بما ذكرت من سمات بارزة في عدد من عباد الله ، الذين اختارهم لقربه وجعلهم من أهل محبته .

وهم كما مروا بك على هذا الترتيب :

١ ـ المقاتلون : ﴿ إنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ ﴾[١] .
٢ ـ المحسنون : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢] .
٣ ، ٤ ـ التوابون ـ المتطهرون : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٣] .
٥ ـ المتّقون : ﴿ فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[٤] .
٦ ـ الصابرون : ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾[٥] .
٧ ـ المتوكلون : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٦] .
٨ ـ المقسطون : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[٧] .

نعم هؤلاء على وجه التحديد ، هم الذين فازوا بهذا الشرف الكبير : حب الله تعالى لهم ، لأنهم حصلوا من هذه الصفات على أعلاها وأسماها ، فجاء القرآن الكريم يمنحهم هذا الوسام الرفيع ، ويصرّح بمحبتهم ( الله يحب ) يعيّنهم بصفاتهم التي نالوا بها هذا الفضل العظيم من الخالق العظيم !

---

(١) الصف ٦١/٤
(٢) البقرة ٢/١٩٥
(٣) البقرة ٢/٢٢٢
(٤) آل عمران ٣/٧٦
(٥) آل عمران ٣/١٤٦
(٦) آل عمران ٣/١٥٩
(٧) المائدة ٥/٤٢

فسبحانه من إله فعالٍ لما يريد ، يوفق للخير ويثيب على الفعل ، ويمدح بما فعل .

فما علينا إلا أن نبسط يد الضراعة والذّلة والخشوع ، طالبين من فضله ، آملين بإحسانه .

فذلّنا بين يديه سبحانه هو عزّنا وسعادتنا .

وإذا تذلّلتِ الرقاب تواضعاً　　منا إليك فَعِزُّها في ذلّها

☆ ☆ ☆

وهناك أناس على العكس من هؤلاء الأبرار الذين سعدوا بمحبة الله لهم ، أناس صرّح القرآن الكريم بِنَفْي المحبة عنهم ، وتجردهم من هذا الإنعام العظيم ، مثل : ﴿ لا يحب المفسدين ﴾[1] ، ﴿ لا يحب المسرفين ﴾ ، ﴿ لا يحب المعتدين ﴾[2] ، ﴿ لا يحب الخائنين ﴾[3] ، إلى آخر ما هنالك ممن اتصفوا بصفات شريرة أوجبت نفي المحبة عنهم .

غير أني عَزَفْت عن ذكرهم وشرح صفاتهم المقوتة ، ولم أرغب في زجهم في هذا الجو العاطفي اللطيف الذي هو موضوع كتابي هذا .

إذ هو كما ذكرت في مقدمته يبحث في حب الله تعالى لعباده ، وحب العباد لربّهم ، وما يتصل بذلك من حبّ الرسول ﷺ ، وحبّ الناس لبعضهم .

فالجو كما ترى أيها القارئ الكريم جوُّ حُبٍّ ومودّة وصفاء ونعيم .

---

(١) الأنعام ١٤١/٦ ، والأعراف ٣١/٧

(٢) البقرة ١٩٠/٢ ، والمائدة ٨٧/٥ ، والأعراف ٥٥/٧

(٣) الأنفال ٥٨/٨

فما ينبغي لنا أن نعكر هذا الصفو الجميل ، بذكر أولئك الأقوام الذين ارتكبوا من الجرائم المفظعة التي تُودي بأنفسهم ومجتمعهم ، وتجانب الهدوء والاطمئنان ، الذي أراد الله للناس أن يعيشوا فيه على وجه هذه الأرض ، كما أشار سبحانه إلى ذلك بقوله : ﴿ يـاأيُّها النَّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعارَفوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ ﴾[1] . كما أشار إلى ذلك أيضاً الرسول الكريم ﷺ بقوله : « ... وكونوا عباد الله إخواناً ... »[2] .

ولكني عزمت إن شاء الله أن أفرد الكلام على هؤلاء برسالة خاصة ، بعد فراغي من هذا الكتاب بحول الله وقوته .

وبذلك يكون جوّهم المُفْعَم بالشرور والمفاسد والأضرار خاصاً بهم ، ومحصوراً في مُحيطهم .

وبالله التوفيق

☆ ☆ ☆

(١) الحجرات ١٣/٤٩

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم .

# الباب الثاني

# حب العبد لله تعالى

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في مكانة المحبة ودليلها .

الفصل الثاني : لماذا نحب الله تعالى ؟

الفصل الثالث : في مستند الصوفيّة المحبين .

# الفصل الأول

# في مكانة المحبّة ودليلها

أجمعت الأمة على أن الحبّ لله ولرسوله فرض ، وأن المحبـة لله ولرسولـه هي الغاية القصوى من المقامـات التي يصل إليهـا السـالـك إلى الله عزّ وجلّ ، وكل المقامات التي ينالها هي ثمرة حبّه لله عزّ وجلّ .

ودليـل محبـة العبـد لله تعـالى ثـابت في قـولـه عـزّ وجـلّ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله ﴾[2] ، وقولـه : ﴿ قُلْ إنْ كانَ آبـاؤكُمْ وأبْنـاؤكُمْ وَإخْوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وأمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُـوهـا وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أحَبُّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وَجِهادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ ﴾[3] .

والإسلام دين الحقيقـة والواقـع ، لا دين الخيـال والـوهم ، فهـو لا ينفـي أن تكون هناك محبوبات للإنسان ، لأن ذلك في جبلّة الإنسـان ، فهو يحب أهلـه وعشيرته وأمواله ومسكنه ، لكن لا ينبغي أن يكون شيء من كل مـا في الـدنيـا والآخرة آثر عنده من الله ورسولـه ، وإلا فهو نـاقص الإيمـان ، يجب أن يسعى للكمال .

---

(١) المائدة ٥/٥٤

(٢) البقرة ٢/١٦٥

(٣) التوبة ٩/٢٤

## حبّ الله ورسوله طريق النجاة :

« ولما سأل الرجل رسول الله ﷺ عن الساعة ، أجابه عليه الصّلاة والسّلام بقوله : وما أعددت لها ؟ قال : لاشيء إلا أني أحبّ الله ورسوله . فقال ﷺ : أنت مع من أحببت »[1] .

قال أنس ( راوي الحديث ) : « فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النّبي ﷺ أنت مع من أحببت ، قال أنس : فأنا أحبُّ النّبي ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبّي إياهم وإن لم أعمل أعمالهم » .

## المحبة الصادقة هي الإيمان الحق :

إن حبّ العبد لله تعالى منزلة ترتفع بصاحبها إلى أعلى درجات السمو والكمال والتّنَزُّه ، وهذه المنزلة تستدعي من صاحبها أن يؤثر مَحبُوبَهُ كما هو الشأن في كل محبّ ، بكل شعب من شِعاب قلبه وفكره ، وأن يضحي في سبيله بكل رغبةٍ من رغباته ، وأن يتحمل في رضاه كل عناء ، ويصبر على كل بلاء .

ذلك أن الحب كما يعهده الناس بين بعضهم هو علاقة فوق المعرفة ، وميلٌ وانعطاف فوق الإرادة والرغبة ، فكل واحد منا يعلم من نفسه أنه يعرف فلاناً من الناس ، أو يعرف كذا من الأشياء ، معرفة رضا وقبول ، دون نبوٍ عنه أو نفور منه ، ولكننا لانسمي هذا حبّاً ، لأن الحب أعمق في نفس المحبّ أثراً ، وأكثر لفراغ القلب شغلاً ، بل الحبُّ الحقيقيُّ : هو الذي لا يترك في القلب فراغاً ، ولا يدع للنفس سبيلاً للتوجه إلى ماسوى الحبيب .

وإذا كان الأمر بهذه المثابة ، فحب العبد لله هو الإيمان الحق ، وليس

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

الإيمان الحق مجردَ المعرفةِ وإذعان النفس ، وبعبارة أخرى : الإيمان الحق هو إيمانُ المحبِّ لله المنفعل به ، الذي يؤثره على نفسه ، وتبدو آثار حبه له في جميع أقوله وأفعاله وتصرفاته .

أما الإيمان الجافُّ الصامت السلبي الذي لا يعدو الإذعان النفسي والإقرار القلبي ، ولا تظهر آثاره في مظهرٍ من المظاهر العملية الإيجابية ، فليس هو الإيمان الذي يريده الله من عباده .

إن المؤمن الحق هو الذي أدرك جمال الله تعالى وجلاله ، وأدرك لطفه وإحسانه ، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه سبحانه هو المنعم المفيضُ ، الذي لا إنعام إلا به ، ولا فيض إلا منه ، ثم انْفَعَلَ بهذا الإدراك فأحبّه ، فأصبح قلبه مشغولاً به ، وعمله موجهاً إليه ، ولذته وارتياحه في طاعته ، وعدم المخالفة عن أمره ، يتحمل في ذلك ما يتحمل ، مغتبطاً قرير العين ، مطمئن القلب ثابت الْخَطا ، فإذا أحسن إليه حبيبه ، تلقى هذا الإحسان شاكراً بلسانه وقَلبه وفِعلِه ، وإذا ناله شيء في سبيل مرضاته ، تلقاه صابراً عليه ، غير متبرم به ولا ضائق به صدراً .



# الفصل الثاني

## لماذا نحب الله تعالى

إننا بقليل من التأمل نجد أن الله عزّ وجلّ أهلٌ لكل حبّ ، وأنه أولى بتعلّق القلب من حبّ المرء لوالده وولده ونفسه التي بين جنبيه .

وأسرع دواعي المحبة وُرُوداً على الذهن هو تلك النعم المفاضة من فضله وكرمه ، والتي يخوض الإنسان فيها خوضاً ، ويمرح في بحبوحتها طولاً وعرضاً ، والتي تتدفق عليه مع الأنفاس ودقّات القلوب ، في جميع الأزمنة والأوقات ، والتي هي على كثرتها وسعتها محصورة به تعالى ومنبعثة منه .

قال عزّ وجلّ مذكّراً عباده بهذه النِّعم : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاتُحْصُوها .. ﴾[1] . وقال : ﴿ ومَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إذا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾[2] .

ويقول الرسول الكريم ﷺ : « أحبوا الله لما يَغْذُوكُمْ به من نِعَمِه ، وأحِبُّوني لِحُبِّ الله ، وأحبُّوا أهلَ بَيْتِي لِحُبِّي »[3] .

☆ ☆ ☆

---

(١) النحل ١٨/١٦

(٢) النحل ٥٣/١٦

(٣) رواه الترمذي والحاكم .

أيها الإنسان : هل من الحياء والوفاء والمنطق السليم ، أن تتمتع بما خلق الله لك من الأضواء ، والإصباح والإمساء ، وما أوجد لك من بديع الأشياء ، وسخّر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على ما قال عزّ وجلّ : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرْضِ جَميعاً ﴾[1] ، ﴿ وَأسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وباطِنَةً ﴾[2] ، ثم لا تؤدي شكره ولا تعرف قدره !

إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً    من فَرْطِ لُطْفِكَ ربي كيف يَنْساكَ

أفلا يؤثر في نفسك فائض إنعامه ومزيد إحسانه ، وما هو عليه من قدرة يتحير فيها الناظرون ، وعظمة لا يصفها الواصفون ، وعلم لا يَعْزُبَ عنه مِثْقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ، وحكمة أتْقَنَ بها جميع الأشياء ، وما هو متصف به عزّ وجلّ من نعوت الجمال وصفات الكمال .

أيها الإنسان إن كان لا يستولي على نفسك إلا سلطان الحسن ، الذي تشاهده بِعَيْنيكَ أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جَمالٍ يَقعُ عليه حِسُّكَ أو يَتَّصِلُ به لَمْسُكَ ، فإنما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق ، الذي يجلُّ عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أيُّ مظهر من مظاهره إلا بعضَ سَرائره ، ولا تُمَثِّل لك أي مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه ، وأنّى يسع المحدود من لا يقبل التحديد ، وكيف لا يضيق المقيد بمن لا يدخل في سجن التَّقْييد .

فطوبى لمن شمّ عرف شذاه أو شام برق سناه ، وهنيئاً لمن شرب قليلاً من مدامه ولو مزجاً ، فإذا لم يدر ما هو تائقٌ إليه ومتلهف عليه ، قال :

شيء به فُتِنَ الورى وهو الذي    يُدعَى الجمالَ ولَسْتُ أدْري ما هُو

(١) البقرة ٢٩/٢
(٢) لقمان ٢٠/٣١

قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون إلى الله ، أتدرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون إلى صلاح لا يتناهى ، وكمال لا يتناهى ، وجمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا لله تعالى !

فارجع أيها المؤمن إلى سلامة فطرتك ، وافتح بَصَرَ بَصيرتك ، وطالع ذلك الجمال الإلهي الذي تجلى على صفحات الموجودات ، واقرأه بين سطور تلك المبتدعات ، ثم انظر رعاك الله إلى أي حدٍّ انتهيت ؟ ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوي الإحساس بالجمال إلا قد وصلت إلى معنى ، يصغر بجانبه اسم الْحُسْن ، إذ تجـدك أحْسَسْتَ بجمال لا يُكَيَّف ، وغرقت في بحر من الجلال لا يُحَد ، ولا يأتي عليه التعبير .

فطوراً في الجلال على التذاذِ ... وطوراً في التذاذ بالجمال

وعند ذلك ينطلق لسان حالك منشداً :

عجبت لعاقل في الناس أضحى ... يَرَى هذا الجمال ولا يَهِيمُ

ويترنم بُلْبُلُ روحك منشداً مُغَرِّداً :

لعمرك كلُّ الْحُسْنِ من بَعْضِ حُسْنِهِ ... وما حُسْنُ كل الحسن إلا جَمَالُهُ

فاسْتَجْلِ هذا الحسن رعاك الله في كل شيْء تراه من العلويات والسُّفْلِيَّات وجميع الكائنات .

إن شئتَ في فَلَكٍ أو شئت في مَلَكٍ ... أو شئتَ في مَدَرٍ أو شِئتَ في حَجَرِ

فالكل ينطق أن الله خالقه ... وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس وهي أظْهَرُ ما علمتَ وأبهر ما رأيتَ ، وأجمل ما وقع عليه البصَرُ وأبهى ما وصل إليه النظَرُ ، إلا أثرٌ من آثاره ونور من أنواره ، وقد

كُتِبَتْ عليها سطور البهاء والجمال والعزّة والجلال ، فنحن نقرأ فيها قدرةً نَخِرُّ لها ساجدين ، وحكمةً تَقِفُ أمامها مبهوتين ، وجمالاً يذوقه الوجدان ، وإن كان لا يُكَيِّفُهُ وتمتلئ به النفوس وإن كانت لاتعرفه ، ونطالع فيه رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(١) .

إن دواعي المحبة في ذات الله تعالى وصفاته لاتحصى ، فإذا كنت تحب أحداً لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ، فأَحِبَّ الله تعالى الذي أتقن هذه العوالم كلّها ، وأودع فيها من الحكم والأسرار ماأدهش فلاسفة العالم ، وكل أصحاب العقل والتفكير .

وقد اعترف الفيلسوف الإنكليزي ( سبنسر ) بهذه العظمة الإلهية ، التي ظهرت في صنع الله في هذا العالم حيث قال : « ليس الغَرَضُ من عِلْمِ الطبيعةِ معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى : أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويَسْتَطْلِعَ تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التي ينتهي إليها علم الطبيعة » .

وحسبنا ماشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدهشة ، التي تكفل بها علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء ، مما بهر علماء ( الفسيولوجيا ) ( علم وظائف الأعضاء ) فطأطؤوا له الرؤوس وعشوا أمامه كما يعشو الخفاش أمام الشموس !

وإن كنتَ تحب أحداً لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحُسْنِ تدبيره ، من القادة والسادة والساسة ، فأَحِبَّ أحكم الحاكمين وأقْدَرَ القادرين ، وقيوم السماوات والأرضين وربَّ العالمين ، ومُدَبِّرَ الخلق أجمعين ، مَنْ أمرُه بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئاً ، فإنما يقول له : ﴿ كن فيكون ﴾(٢) .

(١) المؤمنون ١٤/٢٣
(٢) البقرة ١١٧/٢ ومواضع أخرى .

وإن كنت تحب أحداً لإحسانه ومزيد إنعامه ، وعظيم تبْريزه في باب الفضائل والمكارم ، فأحبَّ منبَع النعم ومعدن الكرم ، وأين كل ما تتخيله إذا قِسْته بقطرة من بحار فضله ، وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه ، بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة وأنه رب الكرم والجود .

﴿ ما يَفْتَحِ اللهُ للنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزيزُ الْحَكيمُ ﴾[١] .

والحق أن هذا مقامٌ يجب أن تتكسر فيه الأقْلامُ وتَخْرسَ فيه الألْسُنُ ، فلن تطيق شرح نعمة واحدة من نعمه سبحانه .

انظر مثلاً إلى نعمة الهواء التي يتوقف عليها وجودُ كلِّ حيٍّ ، إلى آخر ما يتفرع منها وما يتشعب عنها .

وانظر إلى نعمة الضياء أو الماء ، وما أودعه في الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره : ﴿ ذَلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ ﴾[٢] ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلى يومِ القِيامَةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يَأْتيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعونَ ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتيكُمْ بلَيْلٍ تَسْكُنونَ فيهِ أفَلا تُبْصِرونَ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنوا فيهِ ولِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ ﴾[٣] .

﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماء ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

---

(١) فاطر ٣٥/٢

(٢) يس ٣٦/٣٨

(٣) القصص ٢٨/٧١ ـ ٧٣

الثَّمَراتِ رِزْقـاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الفُلْـكَ لِتَجْرِيَ في البَحْرِ بِـأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنْهـارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ والقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ والنَّهـارَ ، وآتـاكُمْ مِنْ كُـلِّ مـا سَـأَلْتُمُـوهُ وَإِنْ تَعُـدّوا نِعْمَـةَ اللهِ لا تُحْصـوهـا إِنَّ الإِنْسـانَ لَظَلـومٌ كَفّارٌ ﴾[1] .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ولِساناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[2] .

﴿ وَمِنْ آياتِهِ يُريكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحيي بِـهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ ﴾[3] ، ﴿ وَفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجـاوِراتٌ وَجَنَّـاتٌ مِنْ أَعْنـابٍ وَزَرْعٌ ونَخيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِماءٍ واحِـدٍ ونُفَضِّـلُ بَعْضَهـا عَلى بَعْضٍ في الأُكُـلِ إِنَّ في ذَلِـكَ لآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلونَ ﴾[4] .

﴿ أَفَلَمْ يَسيروا في الأَرْضِ فَتَكون لَهُمْ قُلوبٌ يَعْقِلـون بِهـا أَو آذانٌ يَسْمَعـونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمى القُلوبُ الّتي في الصُّدورِ ﴾[5] .

إن في الكتاب العزيز عشراتِ الآيات ، التي تلفت نظر الإنسـان إلى قـدرة الله وبديع صنعه وجميل إحسانه وفائض كرمـه ، وفي قليل من التفكر والتـأمل لا يسع الإنسان إلا أن يعترف لخالقه بهذه العظمة المدهشـة ، والإنعـام الفـائض على كل مَن في الوجود ، ومن ثَمَّ يـدعوه ذلـك إلى محبتـه وطـاعتـه والتفـاني في سبيله .

(١) إبراهيم ١٤/٣٢ ـ ٣٤
(٢) البلد ٩٠/٨ ـ ١٠
(٣) الروم ٣٠/٢٤
(٤) الرعد ١٣/٤
(٥) الحج ٢٢/٤٦

ومِمَّنْ فَكَّر في ذلك وأحسَّ بـهِ الفيلسوف ( لينـه ) الفسيولوجي الفرنسي ، الذي كان يدعوه وِجْدانُهُ فيُجيبُهُ ، ويُنـاجيـهِ شعوره الحي فلا يتغـافل عنـه ، قال :

« إن الله الأزلي الكبير العالم بكل شيء ، قد تجلّى لي ببديع صنائعـه ، حتى صرت مدهوشاً مبهوتاً ! فأيُّ قدرة وأي حكمة وأيّ إبـداع أودعـه مصنوعـاتـه ؟ سـواء في ذلـك أصغر الأشيـاء أم أكبرهـا ، إن المنـافـع التي نستمـدهـا من هــذه الكائنات ، تشهد بعظيم رحمة الله التي سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقهـا ينبئ بواسع حكمته ، وكذلك حفظها وتجددها ينطق بجلال عظمته » .

☆ ☆ ☆

أيها القارئ الكريم قد قلت لك آنفـاً : إن هـذا المقـام يجب أن تتكسر فيـه الأقلام وتخرس فيه الألسن ، ذلك لأن البيـان عـاجز عن الإحـاطـة بمـا أسـدى الحقُّ عز وجل إلى عباده من نعم ، غير أني على سبيل التذكير أعود فأقول :

إنك ولا شك تحب نفسـك وكمالهـا ، وربمـا وقفت مرة أمـام المرآة فـأعجبت بشكلك الجميل ، وهندامك الحسن وقوامك الممشوق !

أفلا يَجِبُ عليك حينئذ أن تُحِبَّ مَنْ صَوَّرك فأحْسَنَ صورتَـك ، وخلقـك في أحسن تقويم وَشَقَّ سمعك وبصرك وأسْبَغَ عليك نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنة ؟

أفـلا يجب عليـك أن تحب مَنْ لم يقتصر كرمــه وإنعــامــه ، على إقــامــة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات ماتتنوعُ به لذاتك وتتم بـه بهجتك ؟

هل من الوفاء أن تعرض عنه وقد غمرتـك نعماؤُه ، وأشرق عليـك ضيـاؤه ،

وعـذب مـاؤه ، ولطف هواؤه ، وأنعشتـك بـدائـع أكـوانـه ، من ريـاض غنـاء وصحـارى فيحـاء وأثمـار شهيـة ونفحـات شجيـة ، ومنـاظرَ تطيرُ بـالقلوبِ إلى حضرة علاّم الغيوب ، من شموسٍ وأقمارٍ وأطيارٍ وأزهارٍ ولَيلٍ ونهار ؟

أما يجب عليك أن تقول ، عند رؤية تلك الآيات المدهشـات ، والـدلائل الناطقات والنعم الفـائضـات ، مـا قـال ذلـك البـدوي الـذي لم تشغلـه المـدنيـة وزخرفها ، عن أن يرجع إلى قلبه ويسمع من حديث لبه حيث يقول :

هـــاج للقلبِ من هـواه ادّكارٌ ... وليـــالٍ خِـــلالهن نهـــارُ
وجبـــالٌ شَـوامـخٌ راسيـــاتٌ ... وعيـــونٌ ميـــاههن غِـــزارُ
ونجـوم تلـوح في جُنْـحِ ليـــلٍ ... مُشْرِقـــاتٍ في كل يـــوم تُـــدارُ
وشمـوسٌ مضيئـــة للبرايـــا ... في نهـــار وفي الـــدجى أقمـــارُ
وريـــاحٌ تهبُّ من كل فَـــجٍّ ... وبروقٌ وراءهـــا أمطـــارُ
إنَّ شـــأنَ الإلـــهِ شـــأنٌ كبيرٌ ... جـــل ربـــاً وجلتِ الآثـــارُ
والـــذي قـــد ذكرتُ دلّ على ... الله نفـوساً لهـا هـوى واعتبـارُ

☆ ☆ ☆

أو تقول كما قال غيره مخاطباً نفسه ، يَسْتَحِثُّها على العبرة وإطالة الفكرة :

تَبَصَّرْ حيثُ كان لـــكَ التَّبَصُّر ... وفي ذاتِ الإلـــه دَع التَّفكُّر
وإن تُرِدِ المهيمن حين تَـــذْكر ... تَـأمَّـلْ في نَبـاتِ الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
فـــأنـوارُ المهيمن ســـاطعـــاتٌ ... وأفكارُ الخلائـق حـــائراتٌ
ولكنَّ الأدِلَّـــةَ واضحـــاتٌ ... أصـــولٌ من لُجَينٍ زاهراتٌ
على أغصانها ذَهَبٌ سبيكٌ

شمـوس في البريـــة مشرقــات نجـومٌ في الـديـاجي لامعـاتٌ
بطـولِ الـدهر يـومـاً سـابحـاتٌ إلى مـــالست أدري طــــائراتٌ
يطير بها له الجرم السميك
ريــاضٌ مـونقـاتٌ منعشـــات وألـوانٌ لعينـك مـــدهشـــاتٌ
وأزهـــار تَروقُـــكَ مبهجـــات على قضب الـزبرجـد شـاهـداتٌ
بأن الله ليس له شريك

☆ ☆ ☆

أو تُنْشِدُ مُتَأمِّلاً قول القائل :

يقولـون : أين الله أين عجـائبـه ؟ وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يَشكُّـونَ والإيمـان مـلء قلـوبهم ويُبْدون ماتلك القلوب تُكَـذِّبـه
فـأيُّ امرئٍ في الجوِّ يُرْسِلُ طَرْفَـهُ إذا مـا تَبَـدَّتْ أقـارُهُ وكـواكبُـه
وليس يقول: الله في عرش مجده وهذي حواشيه وهـذي مَواكِبُه
وأيُّ امرئ مـــــا سبّـح اللهَ مرةً إذا راقب الأزهـارَ وهي تراقبــه
عجـــائب ربي في الأنـــامِ كثيرةٌ ولكن جهل المرء لا شـك غـالبُـه

لقـاء هـذه المـذكرات بنعم الله ، والمثيرات إلى كـوامن محبتـه في القلـوب ، أحب المسلمون خالقهم ، حباً لا يعادله أي شيء من المحبوبات مهما كان شـأنـه ، واتصفوا بقولـه تعـالى : ﴿ والّـذينَ آمَنوا أشَـدُّ حُبّـاً للهِ ﴾[1] . بل إن كثيراً من المسلمين فرغـوا أنفسهم لهــذه المحبـة وتغنــوا بهـــا ، حتى اشتُهِروا بـ ( المحبين ) وبـ ( العاشقين ) .

---

(١) البقرة ١٦٥/٢

وكتب الكاتبون في هؤلاء وشرحوا أحوالهم ومقاماتِهِمْ ، في هذا الحب ( الإلهي ) والعشق ( الإلهي ) .

وأطلق لَقَبُ ( الصوفية ) على أولئك الذين يَعْزِفون عن الخوض في متاع الحياة الدنيا ولذائذها وشهواتها ، ويقبلون على الله تعالى ، يَتَوَدَّدونَ له ويتقربون إليه بما يفعلون من طاعاتٍ وقُرُباتٍ ، ومجاهدات لنفوسهم وتَقَشفات ... حتى يَتَعَمَّقوا في هذا ( الحب ) الإلهي الذي يرون فيه أكبر سعادة لهم وأعلى مقام .

وهنا نرى لزاماً علينا أن نذكر مُسْتَنَد هؤلاء في تبرير طريقتهم .



# الفصل الثالث

## في مستند الصّوفية المحبّين

يعتمد هؤلاء ( المحبون ) في مسلكهم هذا على ما كان يفعله رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم ، وما كانوا يأخذون به أنفسهم من زهد في الدنيا ، وإعراض عن زخرفها وجاهها ، وإقبال على الله عز وجلّ في قلوبهم ، وجهاد في سبيل الله بكل ما أوتوا من قوة الإيمان وحرارة اليقين .

فَتَحَنُّثُ الرسولِ الكريم ﷺ الذي كان يقضي فيه الأيامَ والليالي ، وحيداً معتزلاً الناس في غار حراء ، قبل أن يهبط عليه الوحي ، وسيرتُه بعد أن أصبح رسولاً للعالمين ، وحياة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وسيرة بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي ، وسلوك أبيّ بن كعب وتميم الداري وأبي ذر الغفاري وحُذيفة بن اليان ومصعب بن عمير ، وما كان يأخذ به أولئك وهؤلاء ، وكثيرٌ غيرُهم من الصحابة أنفسهم ، من تعبُّد وتَزَهُّدٍ وتَقَشُّفٍ ، ومجاهدة للنفس ومعاندة للشيطان ، وجهاد في سبيل الله ، كل أولئك يمكن أن يكون أساساً متيناً للتقرب إلى الله ، ولنيل ( محبته ) ورضاه .

وقد نَمَتْ طريقةُ الرسولِ الكريم ﷺ وأصحابه ، وَزَكَتْ وامتدت أغصانها ، وأينعت ثمارها ، فإذا هيَ تنشُرُ ظلالها وتؤتي أكلها في حياة التابعين وغير التابعين ، ممن جاؤوا بعدُ ، فكانت لهم شدة عناية بأمر الدين ، وتمسك بالخلق المتين .

## ما فهمه المشركون !

ولقد أدرك المشركون أنفسهم أن تحنث ( محمد ﷺ ) ، وعزلته للناس ، إنما هي من أجل البحث عن الله ، ليتوصل إلى معرفته ، و ( محبته ) .

ومن طلب هذا المطلب العظيم ، لا بدّ له من أن يبتعد عن ضوضاء الحياة وصخب المجتمع وانشغال الناس .

وقد كانوا يوقنون أن ( محمداً ﷺ ) جدير بهذه المعرفة و ( المحبة ) ، لما كانوا يرون من خلقه العظيم واستقامته الفذة .

لذلك حينما علموا أن الوحي تأخر عنه قالوا : « إن ربه قَلاهُ » أي أبغضه ، ولم يعد يُحبه ... فأنزل الله تعالى تكذيباً لقولهم ، ورداً لما فهموه ، من أنه لم يعد يحب نبيه : ﴿ والضُّحى ، واللّيْلِ إذا سَجَى ، ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلى ، ولَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى ، وَلَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى ﴾[1] .

## التَّحَنُّث :

وحياة النبي ﷺ الروحية الأولى إنما بدأت في تعبده وانقطاعه لمعرفة الله و ( محبته ) في ( غار حراء ) .

فهنالك في ذلك الغار الهادئ الوادع ، البعيد عن ضجيج الحياة المادية ، وعَجيجِ المعنين في أفانينها وألوان التَّرفِ والنعيم فيها ، كان يتحنث محمد ﷺ ، كلما أقْبلَ شهر رمضان يقيم طوال هذا الشهر ، مزوداً بالقليل من الزاد ، مسرحاً طرفه في أرجاء الوجود ، متأملاً بعين قلبه كل ما امتلأ به الكون من آيات صنع الله .

---

(١) الضحى ٩٣/١ ـ ٥

لقد ظلَّ محمد عليه الصلاة والسلام على هذه الحال من الاعتزال ، و ( التحنث ) في غار حراء ، الذي كان يعود إليه كلما عاوده شهر رمضان ، حتى صفت نفسهُ ودقَّ حِسُّهُ وصقلت مرآة قلبه ، وتهيأ له أن يرى الرؤيا الصادقة فتجيء مثل فلق الصبح !

وإذا بأنوار الحقيقة تشرق في أعماق نفسه ، وإذا هو ﷺ يمعن في الحق ، والخير واليقين ، بقدر ما يمعن غيره من المتعلقين بأسباب الحياة المادية في الباطل والشرك والشك ... وما فتئ كذلك حتى أشرف على الأربعين ، وهنا قد أتيح له من صفاء الروح ونقاء السريرة وصدق المحبة ، ما صار معه أهلاً لأن يهبط عليه الملك ، ويبشره بفضل الله عليه ومنته .



هذه هي الحياة الروحية الأولى التي رسمها رسول الله ﷺ لنفسه ، وسار عليها خلفاؤه وأصحابه والتابعون ومن بعدهم .

غير أنه قد أضيف إلى هذا المبدأ الناصع الصافي ، عناصر غريبة عن الإسلام ، مع مرور الزمن وامتداد الفتح الإسلامي ، بعضها فارسيٌّ أو هنديٌّ ، وبعضها الآخر يونانيٌّ أو مسيحيٌّ حتى بدا التصوف ، وبدت معه الحياة الروحية ، كأنهما مذهبان مختلفان عن تعاليم الإسلام ، بعيدان عن أن يُردَّ أحدهما أو كلاهما إلى مصادر إسلامية ، لكثرة ما اختلط بهما من هذه العناصر الغريبة . والواقع أنهما مستمدان في الأصل من حياة النبي ﷺ الأولى ، مؤيدان بكثير من آيات القرآن الكريم والسنة الشريفة .



وحسبي ما أشرت إليه ، وأنا بصدد البحث عن حب العبد لربه ، من أحوال ( المحبين ) في المرحلة الأولى من مبادئ الإسلام الحنيف .

والآن إليك قارئي العزيز نموذجين فقط من كثيرين من هؤلاء ( المحبين والعاشقين ) .

☆ ☆ ☆

## النموذج الأول :

### ١ ـ عمر بن الفارض[1] والحب الإلهي :

هذا الشاعر الصوفي الذي اشتهر بشدة حبه لله تعالى ، كانت له فيه أذواقٌ ، وأحْوال وآثار شعرية رائعة فيها نفحات فيّاضة بالحب ، ولمحات مشرقة بأنوار القلب ، وكلها شواهد صدق وأدِلّةٌ حق ، على مبلغ ما تهيأ له من صفاء النفس وجلاء عين البصيرة ، وعلى أن ( الحبّ ) قد ملك عليه كل قلبه وغَيّبَه عن كل شيء إلا عن محبوبه الذي لاقى في سبيل محبته أهوالاً وتَباريحَ ، أفاضَ في وصفها في ديوانه الذي جعل من ناظمه شاعراً خليقاً بأن يمنح لقب ( إمام المحبين وسلطان العاشقين ) كما يدل على ذلك قولُه مخاطباً محبوبه :

كلٌّ مَنْ في حِماكَ يَهْـواكَ لَكِن      أنـا وَحْـدي بِكُـلِّ مَنْ في حِماكا

لله أنتَ يا أبا حفص قد أصبح عندك من ( المحبة ) لله بقدر كل المحبين ، وما من شك أن ( المحبة ) تتفاوت ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ والَّذينَ آمَنوا أشَدُّ حُبّاً للهِ ﴾[2] .

---

(١) هو أبو حفص شرف الدين عمر بن الفارض الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة ، ولد بالقاهرة عام ٥٧٦ هـ ، وتوفي بها عام ٦٣٢ هـ . وقضى خمسة عشر عاماً من حياته في الحجاز ، سائحاً بأودية مكة ، حيث نعمت روحه بالحب الإلهي والكشف الروحي .

(٢) البقرة ١٦٥/٢

وكما يدل عليه قوله أيضاً متحدثاً عن منزلته في ( الحب ) :

نَسَخْتُ بحبي آيــة العشـق من قبلي      فـأهل الهوى جنـدي وحكمي على الكل
وكل فتى يَهْـوى فـإني إمــامُــه      وإني بريء من فتىً سـامـع العـذل
ولي في الهـوى علم تجـلُّ صفــاتــه      ومن لم يفقهـه الهـوى فهـو في جهـل

واقرأ إن شئت قصيدته التي يقول فيها :

روحي غـدت بهـوى بهـاك رقيقـة      وأبت لحبـك أن تكـون عَتيقَـة
فـامنن بطيف في المنـام دقيقـة      وإذا سـألتـك أن أراك حقيقـة
فاسمح ولا تجعلْ جوابي لَنْ ترى

أو قوله :

قـل للـذين تقـدمـوا قبلي ومَنْ      بعـدي ومن أضحى لأشجـاني يرى
عني خـذوا وبي اقتـدوا ولي اسمعوا      وتحـدثـوا بصبـابتي بين الـورى

اقرأ هذا وأمثاله في ديوانه ، ليتبين لك أن هذا الحب العظيم لم يكن من هذا اللون الذي يتقيد فيه المحبون بقيود الحس ، أو يندفعون مع شهوات النفس ، ويتخذون موضوع ( حبهم ) من هذه الصورة الحسنة أو تلك ، إنما هو ( مُحِبٌّ ) أخذ نفسه بالمجاهدة والتصفية ، بحيث انصرف عن العالم المادي بما فيه من زينة زائلة وزخارف حائلة ، وأقبل على عالمٍ أروع من هذا العالم وأمتع ، عالم ليس الجمال فيه جمالاً معيناً بصورة حسية ، بل هو جمال مطلق فياض ، بكل صور الحس المعينة . ومن هنا كانت محبوبته التي يهتف باسمها هتافاً طويلاً ، وردّد أنشودة ( حبّها ) ترديداً جميلاً ذاتاً أخص خصائصها : الجمال المطلق الذي يصدر عنه ، ويفيض منه كلُّ ما في الكون من آيات الحق والخير والجمال .

ومعنى هذا : أن ابن الفارض اتخذ من الذات الإلهية موضوعاً لـ ( حبه ) ، وقد مرّت نفسه في طريق هذا الحب بأطوار متعاقبة ، انتهى منها إلى أرقاها ، وهو أول من أوجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي .

وليس قصدي في هذا الكتاب أن أتحدث عن ابن الفارض ، وعن شعره وديوانه وشراحه فهذا يطول ، إنما تناولت جانباً يسيراً من ( حبه ) الإلهي ، مما له صلة بموضوع كتابي هذا .

وما دمت بصدد الحديث عن شاعر الحب الإلهي ابن الفارض أحب أن أناقش في بيتين قرأتها له ، وأبدي رأيي الخاص في موضوعها .

فقد رأيت له هذين البيتين ، ويظهر أنه قالها بعد أن كشف له عن منزله في الجنة ، وما أعد الله له فيها من تكريم ونعيم مقيم يقول :

إن كان مَنْزِلَتِي في الحب عِنْدَكم ... ما قد رأيتُ فقد ضيعتُ أيامي
لو كنتُ أعلم أن الحبَّ آخِرَهُ ... هذا الهَوانَ لما خالفت لُوَّامي

ومعنى البيتين كما هو واضح أنه لم يُعْجِبْه ما أعد الله له من قصور شامخة ، وأنهار متفجرة وعيون وحور عين وألبسةٍ من سندس وإستبرق ، وأرائك وخدم من الولدان المخلدين ... إلى غير ذلك مما أعدَّ الله في جنانه لعباده الصالحين ، مما تشتهيه أنفسهم وتَلَذُّ أعْيُنَهمْ ، وهم فيها خالدون .

لم يَرُقْهُ كلُّ هذا ، وَنَدِمَ على أيامه التي أضاعها في طاعة الله تعالى ، واعتبر هذا التكريم ، وهذا النعيمَ الضخْمَ العظيم إهانةً وهواناً ، وتَمَنَّى أنه لم يكن خالف الذين يلومونه على إقْبالِه على الله وانشغاله بطاعته ، وأنه سار معهم في الطرق المعوجة المنحرفة .

بل ربما فُهِمَ من كلامه هذا أنه ساخطٌ ، وغير راض عن الله تعالى ، إذ كافأه بهذه الجنة وما فيها من نعيم .

وإذا أجيب عن هذا بأنه ليس سُخطاً ، إنما هو من قبيل تدلل المحبين وطمعهم بالمحبوب . نقول : لِيَكُنْ هذا ، ولكن ليتنا نعلم ماذا يريد ابن الفارض بعد هذا من التكريم !

☆ ☆ ☆

إن الله تعالى قضت حكمته البالغة أن يخلق الجنة والنار ، وأن يجعل الجنة ثواباً وجزاءً وأجراً لعباده المؤمنين وأن يخلُدوا فيها ، وجعل النار عقاباً وعذاباً أليماً للكافرين وهم فيها خالدون .

فالجنة دار المؤمنين في الآخرة ، وقد قال الله تعالى عنها : ﴿ فأثابَهُمُ اللهُ بما قالوا جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنينَ ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيّاً ﴾[(٢)] وقال تعالى : ﴿ إلاّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلومٌ . فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمونَ في جَنّاتِ النَّعيمِ عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلينَ ، يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعينٍ ، بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشّارِبينَ ، لا فيها غَوْلٌ ولا هُمْ عَنْها يُنْزَفونَ ، وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنونٌ ﴾[(٣)] .

---

(١) المائدة ٨٥/٥

(٢) مريم ٦٣/١٩

(٣) الصافات ٤٠/٣٧ ـ ٤٩

وقال تعالى : ﴿ لَكِنِ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الميعادَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقينَ في مَقامٍ أَمينٍ ، في جَنّاتٍ وَعُيونٍ ، يَلْبَسونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلينَ ، كَذَلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحورٍ عينٍ ، يَدْعونَ فيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنينَ ، لا يَذوقونَ فيها الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحيمِ ، فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقينَ في جَنّاتٍ وَنَهَرٍ ، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[3] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وصفت الجنة ، وأوضحت لمن هي : إنها دار المتقين ودار المؤمنين ، ودار عباد الله الصالحين ، ودار المحسنين ، وبالتالي هي موضع تكريم ربّ العالمين لمن تفضل عليهم من عباده المؤمنين .

☆ ☆ ☆

فليت شعري ماذا يريد المحبون غير هذا ؟ فإن كانوا يريدون الزيادة التي ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ لِلَّذينَ أَحْسَنوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ ﴾[4] وهي النظر إلى وجهه الكريم سبحانه ، فإن هذه الزيادة نفسها لا تكون إلا في الجنة دار التكريم .

---

(١) الزمر ٢٠/٣٩

(٢) الدخان ٥١/٤٤ ـ ٥٧

(٣) القمر ٥٤/٥٤ ـ ٥٥

(٤) يونس ٢٦/١٠

فاتضح من كل ما تقدم : أن الجنة هي دار المتقين ودار التكريم ودار مكافأة الله تعالى لعباده العاملين ﴿ أَدْخُلوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] فلا وجه لرفضها إطلاقاً ، ولا يحق للمؤمن أن يزهد بها أو يستهين بالنار التي أعدَّها الله تعالى للخارجين عن أمره .

ومنقول عن ( الحسن البصري ) رحمه الله أنه كان شديد الخوف من النار كأنها لم توجد إلا له .

والله سبحانه وصف المتقين بقوله : ﴿ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السّاعَةِ مُشْفِقونَ ﴾[2] .

بل إن الأنبياء أنفسهم كانوا يدعون ربهم آملين في جنته ورحمته ، خائفين من عذابه ونقمته .

فقد ذكر سبحانه عدداً من الأنبياء ، كموسى وهارون وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب وذي النون وزكريا ، ذكر الله عز وجل هؤلاء الأنبياء في ( سورتهم ) وعدد نِعَمَهُ ومِنَنَهُ عليهم ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ إنَّهُمْ كانوا يُسارِعونَ في الْخَيْراتِ وَيَدْعونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانوا لَنا خاشِعين ﴾[3] فالجنة هي أمل كل مؤمن لأنها مستقر رحمة الله وموضع رضاه ، أما أن يجلس المحبين على عَرْشِهِ ، ويمنحهم شيئاً من عظمته وملكوته فهذا بعيد المنال ، بل هو من قبيل المحال .



(١) النحل ٣٢/١٦
(٢) الأنبياء ٤٩/٢١
(٣) الأنبياء ٩٠/٢١

**النموذج الثاني :**

**ولم تكن المرأة المسلمة بأقل حظاً من الرجل المسلم ، في كل ما يُقَرِّبُ إلى الله وما يُنيلُ الزُّلْفَى بين يديه .**

فالإسلام الذي فتح الباب على مصراعيه أمام الرجل ليفعل القربات ، ويُسارعَ إلى الطاعاتِ ، كذلك جعله مفتوحاً أمام المرأة ، فهي مِثْلُهُ تماماً في هذا الميدان ، كما شاركته في ميادين أخرى من صميم التشريع الإسلامي .

قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ ... وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ ... ﴾[٢] .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالقانِتينَ وَالقانِتاتِ والصّادِقينَ والصّادِقاتِ والصّابِرينَ والصّابِراتِ والخاشِعينَ والخاشِعاتِ والْمُتَصَدِّقينَ والْمُتَصَدِّقاتِ والصّائِمينَ والصّائِماتِ والحافِظينَ فُروجَهُمْ والحافِظاتِ والذّاكِرينَ اللهَ كَثيراً والذّاكِراتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظيماً ﴾[٣] .

فقد قَرَنَ سبحانه وتعالى ذِكْر النساء بالرجالِ ، في كلِّ الحقوقِ والواجبات والقرباتِ ، وللنساء أحوالٌ وزُهْدٌ وخيرٌ وصلاحٌ كما في الرجال ، وفي النساء مَنْ لهن الأوراد والأذكار والكشف ، وغير ذلك من الخصوصيات التي خصّهن الله بها ، وفيهن ذوات الرأي الصائب والعقل الحصيف ، والجهد المشكور والصبر

---

(١) النحل ٩٧/١٦

(٢) الفتح ٢٥/٤٨

(٣) الأحزاب ٣٥/٣٣

الجميل . إلى آخر ما هنالك من الصفات البارزة ، التي تمتع بها هؤلاء النسوة ، من السابقات إلى الإسلام ومن بعدهن : كخديجة وعائشة وأسماء وسُمَيّة وأم سلمة وأم سُلَيْم وأم عمارة وخَوْلة ورابعة ومشعوانة وريحانة وأم الخير ، وغيرهن كثير كثير من النساء المشهورات وغير المشهورات .

وسأقصر حديثي الآن على واحدة منهن ، وهي السيدة رابعة العدوية ، التي اشتهرت بالحب الإلهي ، لما لها من شَديد المساس بموضوع كتابي ، ولست ذاكراً من شأنها كذلك إلاّ لقطاتٍ مما له شديدُ الصلةِ بالموضوع .

☆ ☆ ☆

**رابعة العدوية :**

كانت رابعة زاهدةً عابدةً ، خائفة حزينة باكية ، كما كان كذلك في عصرها ( الحسن البصري وسفيان الثوري ) وأمثالهما من كبار التابعين ، وهو الطابع المعروف إذ ذاك للحياة الروحية في الإسلام ، غير أن ( رابعة ) زادت على هذا كله طابعاً جديداً ، كان له آثار خِصْبة قوية في توجيه الحياة الروحية وجهة جديدة .

وذلك أن رابعة لم تصدر في زهدها وخوفها عن الحزن والخوف فحسب ، كما كان يصدر الحسن البصري وغَيْرُهُ من زُهّادِ عصره ، بل هي قد أضافت عنصراً جديداً ، تلاشى معه الخوفُ من النار والرغبةُ في الجنة ، وأيّ مطلب آخر مما كان يقصده العُبّاد والمتقربون .

ذلك العنصر هو حُبُّ الله تعالى حُبّاً شديداً ، ملك عليها كلّ حواسها ومشاعرها .

ذلك الحب الذي اتخذت فيه من ذات الله تعالى موضوعاً يشتاق إليه

الإنسان ويُقبل عليه لا خوفاً من ناره ولا طمعاً من جنتِه ، بل ابتغاءً لوجهه واجتلاء لطلعته[1] .

لقد كانت قبل وصولها إلى هذا المقام كغيرها من زهاد عصرها ، شديدة الخوف من النار ، دائمة الحزن والبكاء لذلك ، حتى روى الإمام الشعراني عنها أنها كانت : « إذا سمعت ذكر النار غُشِيَ عليها زماناً ، وكانت تقول : استغفارنا يَحْتاجُ إلى استغفار ، وكان موضع سجودها كَهَيْئَةِ الماء المستنقع من دموعها »[2] .

☆ ☆ ☆

أما حين حصل لها قليل من الحب الإلهي ، فقد وُجِّهَتْ الحياةُ الروحيةُ ، عند الزهاد والعباد وِجهةً جديدة ، وَجَعَلَتْ الهدفَ الأسمى من العبادة هو محبةَ الله المجردةَ عن أي شيء آخر ، وبدأت جهاداً جديداً متواصلاً ، للتحقق بهذا الحبِ والاستزادة من رحيقه .

وما من شك أن غيرَ رابعة من الزهاد والعُبّاد ، قد انْطَوَتْ حياتهم الروحية على معنى حب الله والشوق إليه ، إلا أنّ رابعة كانت بِدْعاً بين هؤلاء الزهاد والعباد ، في أنها كانت أسْبَقَهم إلى استعمال لفظة الحب استعمالاً صريحاً ، وتَوْجيهِهِ إلى الله تعالى هذا التوجيه الرائع القوي ، الذي تعبّر عنه آثارها المنظومة والمنثورة .

ومعنى هذا أن لفظة ( الحب ) ظلت مُختفيةً من معجم مصطلحات

---

(١) انظر في الكلام على ابن الفارض مناقشتنا له حول عدم الخوف من النار ، وعدم الطمع في الجنة .

(٢) الطبقات الكبرى ٧٢/١

الصوفية ، حتى كانت رابعة ، فإذا هي تَفْتَحُ فتحاً جديداً ، وتَظْهَرُ ظهوراً واضحاً قوياً ، لتكون حديثاً لمن بعدها .

ونحن حينما ننظر في أقوالها النثرية والشعرية ، نجدها قد فاضَتْ في هذا ( الحب ) الإلهي ، الذي ملك عليها عواطفها ، وجعلها لا تتغنى إلا به ، ولا ترد كلّ شيء إلا إليه .

من ذلك : أبياتها التي تخاطب بها ربّها ، فتقول :

أحِبُّك حُبَّيْن : حبَّ الهوى ... وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فَكَشْفُكَ لي الحجبَ حتى أراكا
فلا الحمد في ذاك ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وقولُها :

يا حبيبَ القلوب ما لي سواكا ... فارحَمِ اليَوْمَ مُذنباً قد أتاكا
يا رجائي وراحتي وسروري ... قد أبى القلب أن يُحب سواكا

☆ ☆ ☆

وقد عقب الإمام الغزالي على أبياتها الأولى بقوله :

« ولعلها أرادت **بحُب الهوى** : حبَّ الله ، لإحسانه إليها وإنعامه عليها ، بحظوظ العاجلة ، **وبحُبِّه لِما هُوَ أهلٌ لَهُ** : الحبُّ لجماله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبّر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكياً عن ربه تعالى :

« أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بَشَر »[1] .

☆ ☆ ☆

وبهذا يتضح أن ( رابعة ) كانت مطيعة لله ، لأنها تحبه لذاته ، والمحب لا يعصي محبوبه في شيء ، لأن طبيعة الحب الامتثال والانقياد للمحبوب ، يعبر عن هذا قولها :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه — هذا لعمري في الفعال بديعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته — إن المحب لمن يحب مطيعُ

☆ ☆ ☆

**أمُّ سلمة :**

هذا وحيث ذكرتُ في هذا البحث أسماء طائفة من النساء المؤمنات الصالحات ، وفيهن ( أم سلمة ) زوج رسول الله ﷺ وردت على ذهني حادثة لها ، في الإسلام مشرّفة تدل على تفكير عميق و ( محبة صادقة ) لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين .

فقد ذكر المفسرون أنه « حينما وقع صلح الحديبية المعروف ، وكان فيه شروط ثَقُلَتْ على المسلمين لعدم علمهم بنتائجها الحسنة ، التي تكون في المستقبل ، أمرهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من قضية الكتاب أن يقوموا فينحروا هديهم ، ويحلقوا رؤوسهم ، فلم يقم منهم أحد ! وذلك لما حصل لهم من الغَمّ مما شُرِط عليهم ، فقام رسول الله ﷺ فدخل على ( أم سلمة ) فذكر

(١) الإحياء : ٤/٢٦٦ ـ ٢٥٧

لها ما لَقِي من الناس ، فقالت له : يا رسول الله ! اخرجْ ، ولا تكلم أحداً منهم حتى تَنْحَرَ بَدْنَكَ ، وتدعو حالقَك فَيَحلقَكَ ، فخرج ففعل ، فلما رأوا ذلك منه قاموا فَنَحروا وجعل يَحْلِق بَعْضُهم بعضاً ، فلما رأى النبي ﷺ ذلك ، قال لها :

« حبـذا أنت يـا أمَّ سلمـة ! لقـد نَجَّى الله بِـكِ المسلِمينَ اليـومَ مِنْ عَـذابٍ أليم » .

☆ ☆ ☆

وأمثـال أم سلمـة ، في النسـاء المسلمـات كثيرٌ ، قـد حفـظ لهن التـاريـخُ أعمالَهن ، وسجلها بحروف من نور ، ليكنّ منار هدىً ، ومثلاً فذاً لمن يـأتي من أخواتهن المؤمنات .



# البابُ الثالِثُ

# حبُّ رسول الله ﷺ

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : محبة النبي ﷺ .

الفصل الثاني : لماذا نحب رسول الله ﷺ ؟

الفصل الثالث : نبذة عن أهل الصُّفة .

# الفصل الأول

## محبّة النبيّ ﷺ

رسولُنا وحبيبنا وقُرة أعيننا سيدنا محمد ﷺ هو الرسول الكريم ، الرؤوف الرحيم الذي أخْرَجَنا الله بِهِ من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الضَّعْفِ إلى القوة ، ومن الضّعة إلى الرِّفْعَة ، ومن الفرقة إلى الوحدة ، ومن النزاع والخصام إلى المحبة والوئام ، حتى كنا بهَدْيه وتَوْجيههِ خيرَ أمة أخرجت للناس .

هو النبي الكريم الذي جعل الله دينه واتباعه ومحبته نعمةً ألّف بها القلوب ، وجمع بها الشتات ، وأنْقَذنا بها من النار : ﴿ وَاذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ على شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها ﴾(١) .

أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بتذكر هذه النعمة على مرّ الزمن ، ليقوموا بشكرها ، وما شُكْرُها إلا المحبةُ والاتباعُ .

فليس بعدَ الله تعالى أحدٌ أمَنّ علينا مِنْ رسولِنا ﷺ ، ومَحَبَّتُهُ في الحقيقة شعبةٌ مِن محبةِ الله عز وجل ولا يمكن الفصل بينهما ، فهما شيئان متلازمان ، فمن أحب الله فلا بدّ له من محبة رسوله ﷺ ، ومن أحب الرسول ﷺ فلا بدّ

---

(١) آل عمران ١٠٣/٣

لـه من محبـة الله . ﴿ قُـلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبّـونَ اللهَ فَـاتَّبِعـوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾[١] ، ﴿ قُـلْ إنْ كانَ آبـاؤُكُمْ وَأَبْنـاؤُكُمْ وَإخْـوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وَأَمْـوالٌ اقْتَرَفْتُموهـا وَتِجـارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسـادَهـا وَمَسـاكِنُ تَرْضَوْنَهـا أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسولِهِ وَجِهادٍ في سَبيلِهِ فَتَرَبَّصوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾[٢] .

☆ ☆ ☆

﴿ ومـا أَرْسَلْنـا مِنْ رَسولٍ إلاّ لِيُطـاعَ بـإذْنِ اللهِ وَلَـوْ أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمـوا أَنْفُسَهُمْ جاؤوكَ فاسْتَغْفَروا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ لَوَجَدوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً ﴾[٣] .

☆ ☆ ☆

فهذه الآيات الكريمـة تشير إلى هـذا التلازم بين محبـة الله عز وجل ومحبـة رسوله ﷺ وبين طاعة الله سبحانه وطاعة رسوله ﷺ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنـه قـال : « من أطـاعني فقـد أطاع الله ، ومن يعصني فقـد عصى الله ، ومن يُطِعِ الأمير فقـد أطـاعني ، ومن يَعْصِ الأمير فقد عصاني »[٤] .

والآية الكريمة صريحة كلّ الصراحـة في ذلـك ، وهي قولـه تعـالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أطاعَ اللهَ ، ومَنْ تَوَلّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفيظاً ﴾[٥] .

---

(١) آل عمران ٣١/٣

(٢) التوبة ٢٤/٩

(٣) النساء ٦٤/٤

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) النساء ٨٠/٤

وقد تقدّم قولُه ﷺ : « أحبّوا الله لما يغذوكم بـه من نعمـه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي »[1] .

وطبيعيٌّ أن تكون محبة رسول الله ﷺ تاليةً لَمحَبَّـةِ الله تعـالى في الوجوب والتَّـأكُّـدِ ، لأنـه ﷺ أكرم الخلـق على ربـه ، وهـو ذو الْخُلُـقِ العظيم والهـدي القويم .

لـذا فـإن الإنسـان لا يكون مـؤمنـاً حتى يحبَّ رسـولَ الله ﷺ ، بـل حتى يكونَ أحبَّ إليه من كل شيء .

وتقدم ما يدل على ذلك صراحة في قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إنْ كانَ آبـاؤُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسولِهِ ﴾[2] ﷺ .

☆ ☆ ☆

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قـال : قـال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من وَلَدِهِ وَوالِدِهِ والنـاس أجمعين »[3] . وفي روايـة لمسلم أيضاً : « حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

قال الإمام النووي رحمه الله نقلاً عن القاضي عياض : « المحبة ثلاثة أقسام : ١ ـ محبة إجلال وإعْظام كمحبة الوالد ، ٢ ـ ومحبة شفقة ورحمة كمحبـة الولـد ، ٣ ـ ومحبة مشاكلةٍ واسْتِحْسانٍ كمحبة سائر الناس ، فجمع ﷺ أصناف المحبـة في محبته » .

---

(١) رواه الترمذي .
(٢) التوبة ٢٤/٩
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه .

وقال : « ومن محبته ﷺ نُصْرةُ سنته ، والذَّبُّ[1] عن شريعته ، وتمني حضور حياته ، فيبذل ماله ونفسه دونه ، ثم قال : وإذا تبين ما ذكرناه ، تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك ، ولا يصحّ الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي ﷺ ومنزلته ، على كل والد وولد ومحسن ومُفَضِّلٍ ، **ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن** » . انتهى كلام القاضي عياض .

☆ ☆ ☆

فإن قال قائل : إن هذا الكلام يُخْرِجُ كثيراً من المسلمين عن الإيمان ! قلنا : بل لا يخرج عنه إلا من كان كافراً موغلاً في الكفر ، وبرهاننا : الاخْتِبارَ .

فَلْنَعْمد إلى رجل من عامَّةِ المسلمين ، ولنقل له : قدّر في نفسك أنك رأيت رسول الله ﷺ حياً وقد قصده أحد أعدائه بسوء ، وكنت بالخِيار بين أن تُسْلِمَهُ فَيَنالَ منه عدوُّه ، وبين أن تُدافِعَ عنه فَتَهْلِكَ دونه ، فأيَّ الأمرين تختار ؟

لِنَقُلْ له ذلك ، وَلْنَدَعْهُ يَحْكُمُ بوجدانه وعاطفته ، فهل لو كان أضعفَ الناس إيماناً وأكثَرَهم عصياناً يَتَرَدَّدُ لحظة في أن يقول : بل أفتديه بنفسي وأهلي وما مَلَكَتْ يَميني .

فذلك الشعور هو مقياس تلك المَحَبَّةِ الراجحة التي تخالط قَلْبَ كل مؤمن .

إلا أن الإنسان كثير النسيان ، فتبقى عنده هذه المحبة كامنةً مغمورة ،

---

(١) الدفاع .

ما دام سلطان الهوى والطبع ومشاغل الحياة متحكماً ، ولكنه إذا ذُكِّر تَذَكَّر ، فمن لم يجد في نفسه هذا الشعور إذا ذكر به فهو كاذب في دعوى الإيمان .

☆ ☆ ☆

قال القرطبي رحمه الله ما خلاصته :

« إن كل مؤمن إيماناً صحيحاً ، لا يخلو من وِجْدانِ شيء من تلك المحبة الراجحة ، حتى إن كثيراً من المسْتَغْرِقين في الشهوات إذا ذُكِرَ النبي ﷺ اشتاق لرؤيته ، بحيث يُؤْثِرُها على أهله وماله ، لما وقر في قلوبهم من محبته ، غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغَفَلات » . اهـ .

☆ ☆ ☆

نعم إن المحبة الكاملةَ الرُّجْحانِ لا يقف الأمر فيها عند هذا الحد ، من تمني حياة الرسول ﷺ والاشتياق إلى رؤيته ، بل تَتَّصِل فيها مَحَبَّةُ ذاته ، وتَمَنِّي حياته بِمَحَبَّةِ سنته وانتصار شريعته ، حيث ثبت أن كلَّ شيء من المحبوب محبوبٌ ، بل لا يكمل إيمان المؤمن ولا يَثْبُتُ رُجْحان مَحَبَّةِ نَبِيِّهِ على كل شيء ما لم تثمر تلك الوجدانات القَلْبيَّة ثمراتها الخارجية ، وتستتبع آثارها العملية ، ومما يعين على ذلك معرفةُ حِكْمة الشريعة ، وأنها إنما جاءت لمصالح العباد في العاجل والآجل ، فليس فيها أمر إلا لجلب مصلحة للمكلف أو لدفع ضَرَرٍ عنه .

فإذا رَسَخَتْ هذه المعرفة لمقاصد الشريعة ، أحبّ الإنسان هذه الشريعة ، وإذا أحب الشريعةَ أحبَّ صاحبَها .

لهذا كان التسلل واضحاً جلياً ومنطقياً في كلامِ سَهْلِ بن عبد الله حيث

يقـول : « عـلامـة حبّ الله : حُبُّ القرآن ، وعـلامـةُ حبِّ القرآن : حبُّ النبي ﷺ ، وعلامـة حبِّ النبي ﷺ : حبُّ السنّة ، وعلامـة حب الله تعـالى وحب القرآن وحب النبي ﷺ وحب السنـة : حبُّ الآخرة ، وعـلامـة حبِّ الآخرة : أن يحبَّ نفسَه ، وعلامة حبِّ نفسه : أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا : أن لا يأخذ منها إلا الزاد والبُلْغَة »[١] .

☆ ☆ ☆

وهؤلاء المؤمنون المحبون لرسول الله ﷺ ، والذين أتَوْا ويأتون بعده بمئـات السنين ، إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليهـا هؤلاء قـد أشـاد النبيّ بهم ، وأخبر عنهم وأثبت محبتهم الشديدة له ، بل أخبر عليه الصلاة والسلام عنهم أن أحـدهم يتمنى رؤيته بكل ما يملك .

عن أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : « مِنْ أشَـدِّ أمّتي لي حُبّاً ناسٌ يَكونونَ بَعْدي يَوَدُّ أَحَدَهُمْ لَوْ رَآني بأهله ومـالـه »[٢] . وعنـد أحـمد : « أنه أعطى أهْلَه ومالَه وأنه رآني » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ أتى الْمَقْبرة ، فقـال : « السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وَدِدْتُ أنّا قـد رأينا إخْوانَنا ، قالوا : أولسنـا إخوانَـك يـا رَسول الله ؟ قـال : أنتم أصْحـابي ، وإخْوانُنا الذين لم يَأتوا بَعْدُ ، قالوا : كيف تعرف مَنْ لم يأتِ بَعْدُ من أمتك يـا رسول الله ؟ فقال : أرأيتَ لَوْ أنَّ رجلاً لَهُ خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ ، بين ظَهْرَيْ خَيْلٍ

---

(١) القرطبي ٤/٦٠

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده .

دُهْمٍ بُهْمٍ ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فإنهم يأتون غُرّاً محجلين من الوضوء »[1] الحديث ...

☆ ☆ ☆

فهذان حديثان صحيحان من أقوال النبي الكريم ﷺ يثبتان أن محبةَ الرسول ﷺ راسخةٌ في قلوب أمته ، وأن أحدهم يتلهف شوقاً وحناناً لرؤيته ، وأنه يَفْديهِ بكل ما يملك وبأعزِّ أهله عليه ، ويثبت لهم مزيةً وهي الأخوة .

وروى أحمد وابن مَرْدُوَيه في تفسيره بسنده ، واللفظ له ، عن صالح بن جُبَيْر قال : قدم علينا أبو جمعة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس يصلي فيه ، ومعنا يومئذ رجاء بن حَيْوَة رضي الله عنه ، فلما انصرف خرجنا نُشيِّعُهُ ، فلما أراد الانصراف قال : إن لكم جائزةً وحقاً ، أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ ، قلنا : هاتِ رحمك الله ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة ، فقلنا : يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً ؟ آمنا بالله واتبعناك ، قال : ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء ، بل قومٌ بعدكم ، يأتيهم كتابٌ من بين لوحين ، يؤمنون به ويعملون بما فيه ، أولئك أعظم منكم أجراً مرَّتين » .

## أعجب الخلق إيماناً :

وروى الحسن بن عرفة العبدي ، قال : حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي ، عن المغيرة بن قيس التيمي ، عن ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال

---

(١) رواه مسلم .

رسول الله ﷺ : « أيُّ الخلق أعْجَبُ إليكم إيماناً ؟ قالوا : الملائكة ، قال : وما لهم لا يؤمنون ، وهم عند ربهم ؟ قالوا : فالنبيون ، قال : وما لهم لا يؤمنون ، والوحي ينزل عليهم ؟ قالوا : فَنَحْنُ ، قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : ألا إنّ أعجب الخلق إلَيَّ إيماناً ، لقوم يكونون من بعدكم ، يجدون صحفاً ، فيها كتابٌ ، يؤمنون بما فيها »[1] .

☆ ☆ ☆

مما تقدم يتضح أن كل مؤمن ، ينطوي إيمانه على حبّ رسول الله ﷺ ، وأن المؤمنين الذين سيأتون على مرّ الزمن فيهم مَزِيَّةٌ زائدة على الصحابة رضوان الله عليهم ، هي أنهم آمنوا برسول الله ﷺ وأحبوه ولم يَرَوْهُ ، وعلى بعدٍ من زمنه ﷺ .

☆ ☆ ☆

**فضل الصحابة :**

ولا ينبغي أن يُفْهَمَ أن المؤمنين الذين يأتون بعدُ ، هم أفضل من أصحاب رسول الله ﷺ . فقد قرر العلماء أن من صحب رسول الله ﷺ ، ورآه مَرَّةً من عُمرِهِ ، وحصل له شرفُ الصحبة أَفْضَلُ مِنْ كلِّ مَنْ يأتي بعدُ ، فإن فضيلة الصُّحْبَةِ لا يَعْدِلُها شيءٌ ولا يماثلها عملٌ ، قالوا : وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام : « ... لو أنفق أحدكم مثلَ أحدٍ ذهباً ، ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِم ، ولا نصيفه »[2] .

---

(١) رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

(٢) رواه مسلم .

قـال الإمـام النـووي رحمـه الله : « وسبب تفضيلهم : أن نفقتهم كانت في وقت الضرورة وضيـق الحـال ، بخـلاف غيرهم ، ولأن إنفـاقهم كان نصرة للنبي ﷺ وحماية له ، وذلك معدومٌ بعده . وكـذا جهادهم وسائر طاعتهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أعْظَمُ دَرَجَةً ﴾[1] الآية .

هـذا كلـه ، مع مـا كان في أنفسهم من الشفقـة والتودد والخشوع والتواضع ، والإيثار والجهاد في الله حق جهاده .

وفضيلـة الصحبـة ولـو لحظـة ، لا يـوازيهـا عمـل ولا تنـال درجتهـا بشيء .. » اهـ .



(١) الحديد ١٠/٥٧

# الفصل الثاني

## لماذا نحبُّ رسول الله ﷺ

إن محبتنا لرسولنا ﷺ لها كثير من الدواعي والمبررات :

١ ـ **فأولها** : أن الله عز وجل أوجب محبته وطاعته ، وقرنها بمحبته سبحانه وطاعته ، وقد مرّت الآيات والأحاديث الدالة على ذلك ، وهي في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ كثيرة جداً .

٢ ـ **الثاني** : لأن الله تعالى أحبه واختاره من خلقه واصطفاه لرسالته ، وفضّله على جميع مخلوقاته ، كما قال صاحب الجوهرة :

وأفضل الخلق على الإطلاق    نبينا فَمِلْ عن الشقاق

وقد ثبت أن الله تعالى إذا أحب عبداً ، وضع له المحبة والقبول عند أهل الأرض والسماء .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فَأحِبَّهُ فيُحِبَّهُ جبريلُ ، فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فُلاناً فأحِبُّوهُ فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض »[1] .

قال القسطلاني : « فيحبونه ، ويميلون إليه ، ويرضون عنه ، فَمَحَبَّةُ الناس علامة على محبة الله لعبده » .

(١) أخرجه البخاري في باب المنة من الله ، ورواه مسلم أيضاً .

فإذا كان هـذا في الإنسـان العـادي من النـاس ، فكيف برسول الله ﷺ ؟ فلا شك أن محبته لازمة وراسخة في قلوب المؤمنين وغيرهم أيضاً .

والله سبحـانـه يقول : ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَـاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾(١) .

قال القرطبي رحمه الله : أي حبّاً في قلوب عباده ، كما جاء عند الترمذي من حـديث سعـد وأبي هريرة أن النّبي ﷺ قـال : « إذا أحبّ الله عبـداً نـادى جبريلَ : إني قد أحببت فلاناً فـأحبَّـهُ ، قـال : فينـادي في السماء ، ثم تنزل لـه المحبة في أهل الأرض ، فذَلِكَ قوله تعـالى : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾(١) . وإذا أبغض الله عبداً ، نادى جبريلَ : إني أبغضت فلاناً ، فينادي في السماء ، ثم تنزل له البغضاء في الأرض »(٢) .

٣ ـ الثالث : لرأفته ورحمته بأمته ، وحرصه على هـدايتهـا وإنقـاذهـا من النار ، وهذه أوصاف ثابتة لـه ﷺ ، قـال تعـالى : ﴿ لَقَـدْ جَـاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ماعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمؤمِنِينَ رؤوفٌ رَحِيمٌ ﴾(٣) .

وقـد أخرج مسلم في صحيحـه عن عبـد الله بن عمرو بن العـاص رضي الله عنهما ، قال : « تلا رسول الله ﷺ قولَ الله تعـالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ومَنْ عَصَـانِي فَـإِنَّـكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٤) . وقول

---

(١) مريم ٩٦/١٩

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) التوبة ١٢٨/٩

(٤) إبراهيم ٣٦/١٤

عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1] .

فرفع يديه وقال : اللهم أمّتي أمّتي وبكى ، فقال الله عزّ وجلّ : ياجبريل ، اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله : مايبكيه ؟ فأتاه جبريل ، فسأله ، فأخبره بما قال وهو أعلم ، فقال الله ياجبريل ، اذهب إلى محمد ، فقل له : **إنا سنرضيك في أمتك ، ولا نَسوؤكَ** »[2] .

وأخباره ﷺ في رحمته ، ورأفته أكثر من أن تحصى .

٤ ـ **الرابع** : لأن دينه خير دين ، وشريعته وتعاليه وتوجيهاته أحسنُ الشرائع والتعاليم والتوجيهات ، يَرْغَبُ دائماً في التسهيل على الأمة والتيسير ، ومن صفته ﷺ أنه ماخُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً .

وقد أمرنا بالتيسير في الأمور ونهانا عن الشدة ، فمن أقواله ﷺ : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا »[3] .

٥ ـ **الخامس** : لعطفه وشفقته وصفحه .

ـ فمن عطفه ﷺ : أنه ادّخر دعوته إلى يوم القيامة ، لتكون شفاعة لأمته في أهم الأوقات وأحرجها .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال : « لكل نبي دعوة

---

(١) المائدة ١١٨/٥

(٢) جامع الأصول ٥٤٦/٨

(٣) رواه مسلم .

مستجابة ، **فَتَعَجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه ، وإني اخْتَبَأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة** ، فهي نائِلةٌ إن شاء الله مَنْ ماتَ من أمتي لا يُشْرِك بالله شيئاً »(١) .

☆ ☆ ☆

ومن عطفه ﷺ : أنه دائماً يدعو لأمته ويهتم بشأنها ، ويرجو من ربه عزّ وجلّ أن يسدد خطاها ويوفق مسعاها حتى تنال رضاه ، وتبتعد عن سخطه وغضبه .

فقد أخرج البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لمّا رأيت من النّبي ﷺ طيب نفس قلت : يارسول الله ! ادْعُ الله لي ، قال : اللهم اغْفِر لعائشة ماتقدم من ذنبها وما تأخر ، وما أَسَرَّتْ وما أعلنت فَضَحِكَتْ عائشةُ ، حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك ، فقال رسول الله ﷺ : أيَسُرَكِ دعائي ؟ فقالت : ومالي لا يسرني دعاؤك ؟ فقال : **والله إنها لدعوتي لأمتي في كل صلاة** »(٢) .

وروي « أن أعرابياً جاء يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : أحْسَنْتُ إليك ياأعرابي ؟ قال الأعرابي : لا ولا أجْمَلْتَ ، فَغَضِبَ المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم : أنْ كُفُّوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي وزَادَه شيئاً ، ثم قال : أحْسَنْتُ إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال النّبي ﷺ : إنك قلت ماقلت ، وفي أَنْفُسِ أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدي ، حتى يذهب مافي صدورهم عليك ، قال : نعم ، فلما جاء الغدُ أو العشيُّ ، جاء فقال

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان رقم ١٩٩

(٢) قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، غير أحمد بن منصور الرمادي ، وهو ثقة .

عليه الصلاة والسلام : إن هـذا الأعرابي قـالَ مـا قـالَ فَزِدْنـاهُ فزَعَمَ أنـه رضي ، أكَـذَلِـكَ ؟ قـال الأعرابي : نعم فجـزاك الله من أهـل وعشيرة خيراً . فقـال عليـه الصلاة والسلام : مَثَلِي ومَثَلُ هـذا الرجلِ مَثَـلُ رجـل لـه نـاقـة شَرَدَتْ علَيه ، فاتَّبَعَها الناسُ فلم يزيـدوهـا إلا نفوراً ، فَنـاداهُمْ صـاحِبُهـا : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرْفَقُ مِنْكُم بها وأعْلَم ، فتَوَجَّه لَها بين يديها ، فـأخـذ لهـا من قُمام[1] الأرض فردّها ، حتى جـاءت واستنـاخَتْ ، وشـدّ عليهـا رحلهـا واستوى عليها ، وإني لوتركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار » .

وروي عنه ﷺ أنه قال : « لا يُبَلِّغْنِي أحد منكم عن أحدٍ من أصحابي شيئاً فإني أحبُّ أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر » .

وكان عليه الصلاة والسلام يسمع بكاء الصبي فيَتَجَوَّز[2] في صلاته .

ودخـل الحسن وهـو يصلي ، فركب ظَهْرَهُ وهـو سـاجـدٌ ، فـأبطـأ ﷺ في سجـوده حتى نـزل الحسن ، فلمـا فَرَغَ ، قـال لـه بعضُ أصحـابـه : لقـد أطلت سجودك ، قال : « إن ابْنِي ارْتَحَلَني ، فكرهت أن أعْجِلَهُ » .

☆ ☆ ☆

ولا أدلُّ على صفحـه وعفـوه وحلمـه ممـا فعلـه ﷺ « حين نصره الله على قريش ، ودخـل مكـة فـاتحـاً مظفراً ، فلم تـأخُـذْهُ نشـوةُ النصرِ ولم يَسْتَبِـد بـه الظَّفَرُ ، بل طأطَأ رأسه على رحله ، وقال لهم كلمتَه الخالدةَ المشهورة : يامعشر قريش ، ماتَرَوْنَ أنّي فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيراً أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطُّلَقاء » .

(١) جمع قامة : وهي الكناسة .

(٢) يتجوز : يخفف .

ما أجمل العفو عند المقدرة ! وما أعظمَ هذه النفس التي سمت كل السمو ، فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النُّبْلِ فوق ما يبلغ الإنسان !

هؤلاء قريش يعرف محمد ﷺ منهم مَنِ ائتمروا به ليقتلوه ، ومَنْ عذّبوه وأصحابَه من قبل ، ومَنْ قاتَلُوه في بَدْر وفي أُحُد ، ومَنْ حاصروه في غزوة الخندق ، ومَنْ ألَّبُوا عليه العرب جميعاً ، ومن لَوِاستَطاعُوا قَتْلَهُ وتمزيقه إرباً إرباً لما وَنَوْا في ذلك لحظة .

هؤلاء كلُّهم يُصْبِحون اليوم في قبضة محمدٍ ﷺ وتحت قَدَمَيْه ، أمْرُهُ نافذٌ فيهم ، وحياتُهُم جميعاً معلقةٌ في كلمة تخرج من شفتيه ، وفي سلطانه هذه الألوفَ المدجَّجة بالسلاح ، تستطيع أن تُبيد مكة وأهلها في رَجْعِ البصر ! لكنّ محمداً ! لكن النَّبيّ ! لكن رسولَ الله ﷺ ليس بالرجل الذي يعرفُ العداوةَ ، أو يريدُ بها أنْ تقومَ بين الناس ، وليس هو بالجبَّار ولا بالمتكبِّر ، لقد أمْكَنَهُ الله من عدوِّه فَقَدَرَ فَعَفا ، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعاً مثلاً في البرّ والوفاء وسمو النفس سموّاً لا يَبْلُغُه أحد .

٦ ـ **السادس** : وَلِحُسْنِ عِشْرتِهِ ، وكَمالِ أدبه ، وبَسْطِ خُلُقِه مع أصْنافِ الْخَلْق .

ـ أما حُسْنُ عِشْرَتِه وكمالُ أدبِهِ وَبَسْطُ خُلُقِه مع أصناف الخلق ، فقد أوفى فيها ﷺ على الغاية التي لا تدرك . وصَدَّق فيه قولَ ربِّه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

---

(١) القلم ٦٨/٤

قال سيدنا علي رضي الله عنه : « كان ﷺ أوسعَ الناس صدراً ، وأصدقَ الناس لهجةً ، وألينَهم عريكة ، وأكرمهم عشرة » .

وقال قيسُ بنُ سعدِ بن عبادةَ : « زارنا رسول الله ﷺ ، فلما أراد أن ينصرفَ قرب له سعدٌ حماراً وطَّأ عليه بقطيفةٍ ، فركب ، ثم قال سعد : يا قيس اصحب رسول الله ، قال قيس : فقال لي رسول الله ﷺ : اركَبْ فأبيت ! فقال : إما أنْ تَركَبَ ، وإما أن تنصرف ، فانصرفت » .

وكان يؤلِّفهم ولا يُنَفِّرُهم ، ويكرم كريم قوم ويولِّيه عليهم ، ويَحْذَرُ الناسَ وَيَحْتَرِسُ منهم ، من غير أن يطوي عن أحدٍ منهم بِشْرَهُ وخُلُقَهُ ، يتفقد أصحابه ، ويعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يَحْسِبُ جَلِيسُهُ أن أحداً أكرم عليه منه .

مَنْ جالسه لحاجة صابره ، حتى يكونَ هو المنصرف عنه ، ومَنْ سألَهُ حاجةً ، لَمْ يَرُدَّهُ إلا بها أو بِمَيْسورٍ من القول ، قد وَسعَ الناس بَسْطُهُ وخُلُقُه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواءً .

وكان دائم البشر ، سَهْلَ الْخُلُق ، ليِّن الجانب ، ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ ، ولا صخَّابٍ ولا فحَّاشٍ ، ولا عيَّابٍ ولا مدَّاحٍ ، يتغافل عما لا يَشْتَهي .

وكان يجيب من دعاه ، ويَقْبَلُ الهدية ويكافئ عليها ، قال أنس : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي : أُفٍّ قط ! وما قال لشيء صَنَعْتُهُ : لِمَ صَنَعْتَه ؟ ولا لشيء تركتُه : لِمَ تركْتَه ؟

وكان يمازح أصحابه ، ويخالطُهم ويحادثهم ، ويجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عُذْرَ المعتذر .

وكان يبدأ مَنْ لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافَحَةِ ، يكرم مَنْ دخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التي تحته ، ويَعْزِمُ عليه في الجلوس عليها إن أبى ، ويكني أصحابه ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوَّز[1] ، فيقطعَه بانتهاء أو قيام .

وكانَ أكثر الناس تبَسُّماً ، وأطيبهم نفساً ، ما لم ينزل عليه قرآن أو يَخْطُب .

٧ ـ **السابع** : لوفائه ، وحسن عهده ، وتمام وعده .

روى عبد الله بن أبي الحمساء ، قال : « بايعت النَّبي ﷺ ببَيْعٍ قبل أن يُبْعَث ، وبقيت له بقية ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنَسِيتُ ، ثم ذكرتُ بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو في مكانه ! فقال : يافتَى لقد شَقَقْتَ عَلَيَّ ! **أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك** » .

وقال أنس : « كان عليه الصلاة والسلام إذا أُتي بهدِيةٍ قال : اذهبوا بها إلى بيت فُلانة ، إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وكانت صديقة لها ، إنها كانت تحب خديجة » .

« ولما قدم وفد النّجاشي ، قام عليه الصلاة والسلام بنفسه يَخْدُمُهُمْ ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك ، فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإني أحب أن أكافئهم » .

وكان يبعث إلى ثُوَيْبَة ، مولاة أبي لهب بِصِلَةٍ وكُسْوة لأنها أرضعته ، فلما ماتَتْ ، سأل : هل بقي من قرابتها أحد ؟ فقيل : لاأحَد .

☆ ☆ ☆

(١) يخفف .

وبعد ، فإن هناك الكثير من الصفات السامية ، والأخلاق الحميدة التي تحلى بها عليه الصلاة والسلام :

هناك نظافته ، وفصاحة لسانه ، وبلاغة كلامه ، وشجاعته ، ونَجْدته ، وحياؤه ، وإغضاؤه ، وعدله ، وأمانته ، وعفته ، وصدق لهجته ، وحسن حديثه ... إلى غير ذلك مما تكفلت بذكره وشرحه كتب السيرة ، إنما أدرت أن أذكر هنا بعضاً من هذه السيرة العطرة ، لتكون كالْمَثَلِ لإيضاح القاعدة .

وعلى الجملة فقد كان عليه الصلاة والسلام محلّى بصفات الكمال ، أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه ، وقد أثنى عليه بقوله مخاطباً له : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ، لذا كانت هذه الخلال ، مما قرب إليه النفوس ، وحَبَّبَهُ إلى القُلوب ، وألانَ لَهُ شَكِيمَةَ قومه بعد الإباء ، وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً ، مناصرين مؤازرين ثم محبين ، مفدّين بأنفسهم وأموالهم وكلّ شيء لديهم .

إن بعض هذه الصفات متى وجدت في إنسان جعلته يَسْتأثِرُ بمحبة الناس وتقديرهم ، فكيف برسول الله ﷺ الذي لم يترك خصلةً من خصال الخير ولا خلةً من الخلال الحيدة إلا اتّصف بها ، وتخلّق بها على الوجه الأكمل !

فكل مُسْلمٍ عليه أن يحبّ هذا النّبي الكريم ﷺ ، بل من واجبه أن يحب كل من يحبه هذا النّبي الكريم ﷺ ، لأن ( مَحْبوبَ الْمَحْبوبِ مَحْبوبٌ ) .

---

(١) القلم ٦٨/٤

# الفصل الثالث

# نبذة عن أهل الصفّة

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة أهل بيت رسول الله ﷺ ، يحبون ( أهل الصفّة ) ويحترمونهم ، لأن رسول الله ﷺ كان يحترمهم ويحبهم ، ويعطف عليهم ويجالسهم .

من أهل هذا ، كان الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعبد الله بن جعفر ، مِمَّن يَرَوْنَ في محبة أهل الصفة كمال الدين ، وفي مجالستهم تمام الشرف ، يتقربون منهم اقتباساً من أخلاقهم وآدابهم .

## الملجأ الأول في الإسلام :

وأهل الصّفة هؤلاء ، قوم من أبناء سادة قريش وأشرافها ، هاجروا من مكة إلى المدينة ، ومنعتهم قريش من أخذ شيء من أموالهم ، فأصابهم من ضيق العيش في المدينة ماأصابهم ، وعانى كثير منهم من شدة الفقر ما عانى .

ولما كانت عزّتهم وكرامتهم لاتسمح لهم أن يمدّوا أيديهم إلى الناس بالسؤال ، فقد أنشأ لهم رسول الله ﷺ ( ملجأ ) يجمع بينهم ، واختار لهم مكاناً متواضعاً في مسجد المدينة ، وكان موضعاً مظلّلاً من ذلك المسجد ، فسمّاه من أجل ذلك ( صُفّة ) ، واشتهر أهلُه بين أصحابه بأهل الصُّفة ، وكانوا نحواً من أربع مئة رجل من مهاجري قريش ، وربما كان فيهم من غير المهاجرين ممن وفدوا على المدينة من العرب وأسلموا ، لم يكن لهم مساكنُ في المدينة ولا عشائر ، فآواهم النَّبي ﷺ في ذلك المكان ، وكان بهذا ( أول ملجأ اتُّخِذَ للفقراء في الإسلام ) .

وقد كان لهذا الملجأ نظامٌ ، كتلك النُّظم التي تتخذها الأمم الحديثة في بعض ملاجئها ، والذي يتفق مع أسباب المدينة التي تسير عليها ، لا كما نظر إليه بعض المسلمين في عصور مظلمة فغيّروا اتّجاهه وأساؤوا فهمه .

## نظام الملجأ :

١ ـ قد كان من نظام هذا الملجأ : أن لا يدخله إلا الفقير الذي لا يستطيع ضرباً في الأرض لِلْكَسْبِ ، أو لا يجد من كسبه ما يغنيه عن قبول هذه الصدقة ، التي يقدمها لهم رسول الله ﷺ من الزكاة أو مما يتقاضاه لهم من الأغنياء ، ويقوم هو عليه الصلاة والسلام بدور الوسيط في إيصال كفايتهم إليهم ، ليبين بذلك ما يجب على الدولة الإسلامية في مثل هذا الشأن ، وليكون قدوةً لها فيما رسمه من تدبير .

٢ ـ وكان من نظامه : أن جُعِلَ مدرسةً لأولئك الفقراء ، وكان مدرسة ليليةً يَتَعلَّمون فيها القرآن وغيره من العلوم ، وأما في النهار فلهم عمل آخر ، سأذكره فيما بعد .

بذلك كان رسول الله ﷺ أولَ من جعل الملاجئ مدارسَ ، لتكون دُورَ علمٍ وتعليم ، وينتفع الناس بها في دينهم ودنياهم ، ويكون في إيصال الصدقة إلى هذه الملاجئ خير كبير .

٣ ـ وكان من نظامه : أن جَعَلَ لهم عملاً بالنهار ، ينفقون منه على أنفسهم ، ولا يكلهم إلى ما يصل إليهم من الصدقات ، لأنها لم تكن مورداً دائماً ، بل كان من عنده فضل من المسلمين أتاهم به إذا أمْسَى ، ولأن الإسلام دينُ عملٍ وجهادٍ ، فلا يرضى لأحد أن يَقْعُدَ عن العمل ، فكانوا يخرجون بالنهار فيجمعون النوى ، ثم يرضخونه ويبيعونه لأصحاب الجمال .

٤ ـ وكان من نظامه : أن جَعَل منهم جنداً للمسلمين تحت الطلب ، فكانوا يخرجون في كل سريَّة يبعثها رسول الله ﷺ ، وفي كل غزوة يغزوها بنفسه ، فيكون شأنهم في ذلك شأنَ كلّ مسلمٍ ، ولا ينقطعون إلى مَلْجَئِهِمْ ، كما ينقطع الرُّهبان إلى صوامعهم .

ولقد قام هذا الملجأ يؤدي عمله على عهد النّبي ﷺ ، ثم تولَّى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه فأبقاه على حالِهِ التي كان عليها .

فلما تولى بعده عمر رضي الله عنه ، واتَّسعت في عهده الفتوح ، وفُتِحَتْ للمسلمين خزائن الفرس والروم ، وصارت أسباب الكسب والغنى سهلة ميسرة ، أمر الفاروق رضي الله عنه بإغلاق هذا الملجأ ، وأمر أهله أن يسلكوا تلك السُّبل الميسرة للغنى لأنه لا يرضى بالفقر إلا أهل الخمول والكسل ، والإسلام دين جد وعمل .

فقد روي أن عمر رضي الله عنه ، قال لهم : « إن رسول الله ﷺ قد احتفظ بكم في عهد لم تكونوا تجدون فيه مُرْتَزَقاً ، ولكن اليوم قد اتّسعت في وجوهكم أبوابُه ، فامضوا لشأنكم واعملوا مع العاملين » .

☆ ☆ ☆

رحم الله أبا حفص فقد تَمَشّى بعمله هذا ، وصرف أهل الصفّة مع إرادة الرسول الكريم ﷺ ، ونزولاً عند تعاليمه التي تتطلب من المؤمن أن يكون

عزيزاً قوياً ، لا عالـةً ولا كلاً على النـاس ، ومثـلُ عمر يقتـدى بـه ويـؤخـذ عنه[1] .

☆ ☆ ☆

---

(١) مصادر هذا البحث : حلية الأولياء لأبي نعيم ، الرسالة للزيات ، حيـاة محمـد ﷺ للـدكتور هيكل باشا ، الإسلام دينٌ عام خالد لمحمد فريد وجدي .

# الباب الرابعُ

## حبّ أصحاب محمّد محمّداً ﷺ

وفيه ستة فصول :

الفصل الأول : في التعريف بأصحابه ﷺ .

الفصل الثاني : في حب أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

الفصل الثالث : في حب عمر رضي الله عنه .

الفصل الرابع : في حب عثمان رضي الله عنه .

الفصل الخامس : في حب علي رضي الله عنه وكرم وجهه .

الفصل السادس : في حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم للنبي ﷺ .



# الفصل الأول

## في التعريف بأصحابه ﷺ

أصحاب رسول الله ﷺ هم أولئك السادة ، الذين نظر الله في قلوبهم ، فاختارهم أصحاباً لرسوله ﷺ ، وأنصاراً لدينه ، وَوُزَراءَ لنبيه ، وجعلهم أبرَّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً ، زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة ، باعوا أنفسهم لله ورسوله ، وتفانوا في محبتها .

هم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وصفهم القرآن الكريم ، مع نبيهم ﷺ بقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ والَّذينَ مَعَهُ أشِدّاءُ عَلى الكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً سيماهُمْ في وُجوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ في التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ في الإنْجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوى عَلى سوقِهِ يُعْجِبُ الزُّراعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عَظيماً ﴾(١) .

ووصفهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بأن الإيمان ملء قلوبهم كأمثال الجبال .

ووصفهم سيدنا علي رضي الله عنه بقوله : « والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يُشْبِهُهم ، لقد كانوا يصبحون صُفْراً شُعْثاً غُبْراً ،

---

(١) الفتح ٤٨/٢٩

بين أعينهم كأمثال رُكَبِ المِعْزَى[1] ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يتراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا[2] كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينُهم حتى تبتلّ ثيابهم »[3] .

هؤلاء الذين استجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ ، حينما دعاهم لما يحييهم ، فبادروا إلى الإيمان ، وقالوا : ﴿ رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادي للإيمانِ أنْ آمِنوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّا ﴾[4] ووضعوا أيديهم بيد رسول الله ﷺ مبايعين على الطاعة والجهاد والفداء ، فهانت عليهم نفوسُهم وأموالُهم وعشيرتُهم ، واستطابوا المراراتِ والمكاره ، في سبيل الدعوة إلى الله ، وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب ، والثقة بنصر الله ، فانساحوا في الأرض ينشرون رسالة الله ، ويطبقون تعاليم الرسول ﷺ ، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها .

نَسُوا في سبيل ذلك لذاتهم ، وهجروا راحاتِهم ، وغادروا أوطانهم ، وبذلوا مُهَجَهُمْ ، وعظيم أموالهم ، حتى انتشر الدين ، واستقرت الشريعة ، وقامت دولة التوحيد والتقوى ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وقرت بهم عين رسول الله ﷺ ، فكانوا كما قال الله تعالى فيهم : ﴿ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ ﴾[5] .

---

(١) يقال : فلان بين عينيه مثل رُكبة العنز من أثر السجود .

(٢) تحركوا .

(٣) الحلية لأبي نعيم .

(٤) آل عمران ١٩٣/٣

(٥) آل عمران ١١٠/٣

هـؤلاء هم الـذين رسخت في قلـوبهم محبـة رسـول الله ﷺ ، حتى أصبحـوا يفـدونـه بـأعز شيء لـديهم ، هؤلاء الـذين أعجب بهم أبو سفيـان ، ودهش من عظيم محبتهم لنبيهم ، وقال : « ما رأيتُ مِنَ الناسِ أحـداً يُحبُّ أحَـداً ، كحب أصحابِ مُحَمَّدٍ مُحمداً » .

وقد ذكرتُ أكثر من مرة فيما تقـدم من أبحـاث في هـذا الكتـاب ، أن حبهم له ﷺ كان حباً حقيقيـاً ، يتجسـد واضحاً جلياً في تمسكهم بـدينـه ، وعملهم بشريعته واتبـاعهم لسنتـه ، ودعوتهم إلى دينـه في أنحـاء الأرض خلال ربع قرن من عمر الزمن .

## أدعياء المحبة :

أمـا محبـة أكثرِ المسلمينَ اليومَ لرسول الله ﷺ ، فهي دعوى لا دليـل عليهـا ولا برهان ، لأن الإعراض عن دينِهِ وهجرَ شريعَتِـهِ وتركَ سنتِـهِ ، واستحسـانَ كل ما يأتينا عن أعدائنـا وتفضيلَـه على تعـاليمِ وتوجيهـات نبينـا ... كلٌّ ذلـك يُكَذِّبُ دعوى المحبة ، ويبرهن على أنها ادعاء لا حقيقة له ، وأن مثل هذه المحبة الجوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع !

إننا نضرع إلى الله عز وجل خاشعين ، آملين أن يملأ قلوبنا بمحبته سبحـانـه ومحبـة نبيـه ﷺ ، محبـة صـادقَـة مخلصـةً تُرضيـه عـز وجـل وتُرضي نبيَّـه الكريم ﷺ ويَرضَى بها عنا ، حتى نكون سعداء في الـدنيـا والآخرة ، إنـه خير مسؤول .



والآن قد حـان الوقت لأذْكُرَ مـا وعـدتُ بـه من نمـاذجَ من محبـة أصحـاب رسول الله لـه عليـه الصلاة والسلام ، تعبر عن عظيم حبِّهم وطـاعتِهم وامتثـالِهم وتضحياتِهم وفدائهم .

وما أقْصِـدُ إلى تقصي كلِّ مـا جـاء عنهم في هـذا البـاب ، فـذلـك بَحْرٌ خضم لا ساحلَ له .

إنما هي لَقَطات ومقتطفات ، وقع اختياري عليها ، من هنا ومن هنـاك ، كنتُ شديد الإعجاب بها حينما قرأتها ، فـأحببت أن أشركَـك معي أخي المؤمن في هذه المقتطفات ، ولعلها تنال إعجابَك كما نالَت إعجابي ، وتحفزنـا جميعـاً إلى الأسوة والقدوة والعمل .



# الفصل الثاني

# في حبّ أبي بكر الصّديق

## رضي الله تعالى عنه

حسبُ أبي بكر رضي الله عنه الصحابي الأول ما فعله يومَ الهجرة ، فقد أعَدّ لها العدة ، ورصد لها كل ماله ، وظلَّ ينتظر أمرَ رسولِ الله ﷺ ، حتى إذا أعلمه الرسول ﷺ بأنه قد أذن الله له بالهجرة ، طلب من النبي ﷺ الصحبة ، قال له الرسول ﷺ : « الصحبة » ! فسُرَّ بذلك سروراً بالغاً أدى به إلى البكاء .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « فوالله ما شَعَرْتُ قط قبل اليوم ، أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي » .

وحينما انتهى المهاجران العظيمان إلى غار ثور[1] ، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ[2] لك الغار ، ودخل الغار فتأكد من خلوه من كل ما يؤذي رسولَ الله ﷺ ثم دخل بعد ذلك الرسول ﷺ ومكثا فيه .

---

(١) ثَوْر : جبل بأسفل مكة ، وقد سمي الغار باسمه .

(٢) أتأكد من سلامته من الأذى .

## شدة خوفه على الرسول ﷺ :

وحين أدركهم طلب قريش بـدأت المخـاوف تشتـد على أبي بكر ، وكان رسول الله ﷺ يطمئنـه ويهدئ من روعـه ، فيقول لـه أبو بكر : « أمـا والله ما على نفسي أخاف يا رسول الله ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » ، فيجيبـه رسول الله ﷺ بقولـه : ﴿ لا تحزن إن الله معنـا ﴾[1] وبقولـه : يـا أبـا بكر ! ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما . ثم عطف عليـه الرسول الكريم ﷺ ، فـدعـا لـه بـالطمأنينـة والهـدوء ، فنزلت عليـه سكينـة من الله عز وجل ، وفـاز الصـديق بشرف نزول الآية الكريمة : ﴿ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنودٍ لَمْ تَرَوْهـا وَجَعَـلَ كَلِمَـةَ الَّـذينَ كَفَروا السُّفلى وَكَلِمَـةُ اللهِ هِيَ العُلْيـا وَاللهُ عَـزيـزٌ حَكيمٌ ﴾[1] . وشرف التصريح بصحبته : ﴿ إِذْ يَقولُ لِصاحِبِـه ... ﴾[2] . قـال الإمـام القرطبي في تفسيره ، عنـد قولـه عـز وجـل : ﴿ إِلاّ تَنْصُروهُ فَقَـدْ نَصَرَهُ اللهُ ... ﴾ قال : فقد نصره الله بصاحبه في الغار بتأنيسـه لـه وحملـه على عنقـه وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله .

قـال الليث بن سعـد : « مـا صحب الأنبيـاء ، عليهم السلام مثـلُ أبي بكر الصديق » اهـ .

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة ما قاله القرطبي أيضاً من جواز الفرار بدينه ، والاستخفاء من عدوه .

قـال : « وفيـه دليـل ( أي في حـادث الهجرة ) على جـواز الاختفـاء في

---

(١) التوبة ٤٠/٩

(٢) التوبة ٤٠/٩

الغِيَرانِ[١] وغيرها ، والفرارِ بالدين خوفاً من العدو ، وأن لا يلقي الإنسان بيده إلى العدو توكلاً على الله واستسلاماً له »[٢] .

## اعتراف عمر بعمل أبي بكر :

وقد اعترف عمر رضي الله عنه بهذه التضحيات الكبرى التي قدمها أبو بكر للنبي الكريم ﷺ في يوم هجرته ، فقد أخرج البيهقي عن ابن سيرين قال :

« ذُكر رجالٌ على عهد عمر ، فكأنهم فضّلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما فبلغ ذلك عمر ، فقال : والله ! لَلَيْلَةٌ من أبي بكر خَيْرٌ من آل عمر[٣] ، لقد خرج رسول الله ﷺ ، لَيْلَةَ انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يَدَيْهِ وساعة خَلْفَهُ ، حتى فَطِن رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا بكر ! مالك تمشي ساعةً خَلْفي ، وساعة بين يَدَيَّ ؟ فقال : يا رسول الله ! أذكر الطَّلَبَ فأمشي خَلْفَكَ ، ثم أذكر الرَّصَدَ[٤] فأمشي بين يديك . فقال ﷺ : يا أبا بكر ! لو كان شيءٌ لأحببت أن يكون بك دوني ؟ قال : نعم ، والذي بعثك بالحق ، فلما انتهيا إلى الغار ، قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله ! حتى استبرئ لك الغار ، فدخل فاستبرأه حتى إذا كان ذكر أنهُ لم يَسْتَبْرِئْ الجِحَرَةَ[٥] ، قال : مكانك يا رسول الله ! فنزل فاستبرأ الجحرة ، ثم قال : يا رسول الله انزل فنزل .

---

(١) الغِيران : جمع غار .

(٢) القرطبي ١٤٥/٨

(٣) في بعض الروايات : ليوم وليلة من أبي بكر ... إلخ ويقصد باليوم : يوم الردة الذي وقف فيه أبو بكر وقفته المشهورة .

(٤) الرصد : أي الراصدون المراقبون .

(٥) الجحرة مفردها جحر : مكان السباع والهوام .

ثم قال عمر : « والذي نفسي بيده ! لَتِلْكَ اللّيْلَةَ خيرٌ من آل عمر »[1] .

**الصديق يبكي خوفاً على النبي ﷺ من ( سُراقَةَ ) :**

مكث الصديق يحوط رسول الله ﷺ بكل ما يستطيع من عناية في الغار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث حين عرفا أن قد سكن عنهم الطلب ، وحمى الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بمعجزة الغار المشهورة ، خرج المهاجران يقصدان المدينة المنورة التي كانت تسمى ( يثرب ) ، وسُقِطَ في يد قريش لخيبتها من العثور عليهما ، وتفجرت غيظاً وحنقاً وجعلت **مئة ناقة مكافأةً لمن يردّ رسول الله إليها** . وعلم بهذا الجُعْلِ المغري الذي يستهوي النفوس ، ويُغْريها لارتكاب الجريمة ، علم بذلك أحدُ الشجعان الفتاك : سراقةُ بن مالك بن جُعْشُم ، فتدجَّجَ بسلاحه وأدرك المهاجِرين في الطريق ، وظنَّ أنه قد حصل على بغيته وأنه سينال الجائزة المغرية .

**خيبة أمل تفاجأ ( سراقة ) :**

ولكن سراقة الذي كان يعيش لحظاته هذه مغموراً بنشوةٍ حادة ، إذ أيقن أنه نجح في طَلِبته ، وأنه مدركُ الرجلين لا محالة ، فرادُّهما إلى مكة أو قاتِلُهما إنْ حاولا دفاعاً عن نفسيهما ، بينما هو يعيش في هذه الأماني الحلوة إذا بجواده يكبو به كبوة عنيفة ، جعلته يتدحرج من فوق ظهره ويُلْقى على الأرض ، ولكن الفارس الشجاع يستجمع نفسه ويشدّ من عزيمته ، حتى لا تفلت منه الغنيمة ، فيعود إلى ظهر جواده ويتهيأ من جديد للانقضاض على القوم .

---

(١) أخرجه الحاكم ، والبغوي ، وابن كثير أيضاً .

وهنا بكى أبو بكر حين رأى الفارس الفتـاك أصبح على قـدر رمح أو رمحين أو ثلاثة منهما .

ورأى رسول الله ﷺ صاحبه يبكي فيسأله : لِمَ تبكي ؟ فيقول : أما والله ! مـا على نفسي أبكي ، ولكن أبكي عليـك ! فيطمئنـــه رسـول الله ﷺ ويتجـه الرسول ﷺ إلى الفارس فيدعو عليـه بقولـه : اللهم ! اكْفِنـاهُ بما شئْتَ . وهنـا يجيء النصر الإلهي المبـاشر فتسيخ[1] قـوائم فرسِ سُراقَـةَ إلى بطنهـا في الأرض ، وهنا يوقن سراقة أنه خاب أمله وذهبت أمانيه أدراج الريـاح ، وأن الله تعـالى مانعٌ نبيَّه من كل شر .

عندها يتجه سُراقَةُ إلى النبي الكريم ﷺ قائلاً : يا محمد قـد علمت أن هـذا عملـك ، فـادعُ الله أن يُنَجّيني ممـا أنـا فيــه ، فـوالله لأعمينَّ على مَنْ ورائي من الطلب ، ثم رجا رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه .

ودعا له رسول الله ﷺ فأطلق جواده من الأرض ، وأمر أبـا بكر ، فكتب له كتاباً على عظْمٍ أو خَزَفٍ فألقاه إليه ، فأخـذه وعـاد أدراجـه ، وأخـذ نفسـه يتَضْليلِ مَنْ يُطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده !

☆ ☆ ☆

## يلبي إشارة رسول الله ﷺ بسرعة :

ومن حبّ أبي بكر الصـادق ، إلى رسول الله ﷺ مـا فعلـه قبـل الهجرة من تنفيذ إشارة الرسول ﷺ بعِتْقِ بِلال وإنقاذِه من العذاب .

رَوى عطـاءُ والضحـــاكُ عن ابن عبــاس رضي الله عنهما قـــال : « عـــذّبَ

---

(١) تسيخ : تغوص .

المشركون ( بلالاً ) رضي الله عنه ، وبلال يقول : أحَدٌ أحَدٌ ، فمرّ به رسول الله ﷺ ، فقال : أحَدٌ ( يعني الله تعالى ) يُنَجِّيكَ ، ثم قال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر : يا أبا بكر ! إن بلالاً يعذب في الله .

فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ ، فانصرف إلى منزله ، فأخذ رطلاً من ذهب ، ومضى به إلى أمَيَّةَ بن خلف ، فقال له : أتبيعني بلالاً ؟ قال : نعم ، فاشتراه فأعتقه » .

وقال سعيد بن المسيب : بلغني أن أمية بن خلف ، قال لأبي بكر حين قال له : أتبيعنيه ؟ قال أمية : نعم ، أبيعه بنِسطاس ، وكان ( نِسطاس ) عبداً لأبي بكر ، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمانٍ وجوارٍ ومواشٍ ، وكان مشركاً ، فدعاه أبو بكر للإسلام ، على أن يكون له ماله فأبى ، فباعه أبو بكر به ، فقال المشركون : ما فعل أبو بكر هذا إلا ليدٍ كانت لبلال عنده ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى ، إلاّ ابْتغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعْلى ، وَلَسَوْفَ يَرْضى ﴾[1] أي سوف يعطيه في الجنة ما يرضى ، وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق .

روى أبو حَيَّان التَّيْمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أبا بكر ! زوجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله »[2] .

☆ ☆ ☆

---

(١) الليل ٩٢/١٩ ـ ٢١

(٢) قرطبة ٢٠/٨٩

نعم رحم الله أبا بكر ، فقد كان حبُّه صادقاً وعنيفاً ، قدم ماله كله ، وترك أهله ، وعرض نفسه لخطر أكيد ، وموت راصد ، ولم يساوره خوف على نفسه لحظة واحدة ، إنما كان خوفه على حبيبه وعلى دينه وشريعته ، كما صرح بذلك في بعض أخباره أنه قال : والله ! يا رسول الله ! ما على نفسي أخاف ، أنا إن قُتِلْتُ فإنما يُقْتَل رجُلٌ ، ولكن إن أصِبْتَ أنت بمكروه ، إنما يذهب دين ، وتمحي شريعة .

لذلك علم الله عز وجل ، صدق نيّته ، وخالص محبته ، فكافأه سبحانه بأن يُعطيه ويُرضيَه .

وكفاه فخراً أن شهد الرب عز وجل بإخلاصه في إنفاقِه وابتغائِه وجْهَ ربه ، حينما اتهمه المشركون ، بأن عمله مع بلال ليدٍ كانت لبلال عنده ، كذّبهم الرب عز وجل ، وأنزل آيات تشهد بإخلاصه .

☆ ☆ ☆

وكَما أشَرْتُ أخي المؤمن فإني لَسْتُ بسبيل التحدث عن أعمال أبي بكر ، وجهاده وتضحياته ، فذلك جهد مشكور أفاضت به كتب التاريخ والتراجم ، إنما هي لقطات مما يتصل بالمحبة وأثرها : موضوع كتابي الذي أنا بصدده .

فرحم الله أبا بكر المحب ، ورحم الله أبا بكر المجاهد ، ورحم الله أبا بكر الوزير ، ورحم الله أبا بكر الخليفة ، ورحم الله أبا بكر ثاني اثنين .



# الفصل الثالث

## في حبّ عمر رضي الله عنه

حَسْبي من الكتابة في مَحَبَّةِ عُمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ، تلك المحاورةُ القصيرةُ التي أَثْبَتَتْ أن عُمَرَ يحبّ رسول الله ﷺ أكثر من نفسه .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن هشام ، قال : « كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له عمر : يا رسول الله ! لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال النبي ﷺ : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك . فقال له عمر : فإنه الآن والله ! لأنت أحب إليّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : الآن يا عمر »[1] .

☆ ☆ ☆

قد يتوهم من هذه المحاورة أن عمر لم يكن قبلها يحب رسول الله ﷺ أكثر من نفسه ، ولكن التمحيص للحقيقة ، يفصح لنا أن محبة الرسول الكريم ﷺ ورجحانَها على كل شيء ثابتة في قلب عمر .

إنما الجديد في ذلك ، هو إدراكه لتلك المحبة والتفاتُه إليها ، وإيضاح ذلك : أنه كان في أول الأمر قد امتحن نفسه ، أمام حب المال والولد والزوج

---

(١) البخاري في أوائل كتاب الإيمان والنذور .

والعشيرة والمسكن والتجارة ، فوجد حبّه لهذه الأشياء مرجوحاً بجانب حبه لرسول الله ﷺ ، ولم يكن قد جرى بعدُ في خاطره حديث المقارنة بين حُبّه له وحُبّه لنفسه ، فلم يَجْرُؤ أن يحكم فيه بشيء ، بل اسْتَثْنى نفسه من تلك المقارنة ، سكوتاً عن الحكم بما لم يختبره ، لا حكماً بعدم ذلك الرجحان .

فلما نَبَّهَهُ النبي ﷺ ، فكر وقارن وتَحَسَّسَ حال قلبه ، فإذا هو يجد من رُجْحانِ محبة الرسول ﷺ عن محبة نفسه ما كان غافلاً عنه لا ما كان خَلْواً منه .

فقوله ﷺ : « الآن يا عمر » معناه الآن أصَبْتَ في قولك ، وأحْسَنْتَ التعبير عَمّا في نفسك .

ومن آثار هذه المحبة المتبادلة بين عمر وبين رسول الله ﷺ ، أن طلب الرسول ﷺ منه أن يذكره في دعائه ولا ينساه ، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « استأذنت رسول الله ﷺ في العُمْرة فأذِنَ لي ، وقالَ لي : لا تَنْسنا يا أخي مِنْ دُعائِكَ ، أو قال : أشركنا يا أخَيَّ في دعائك .

قال عمر : فقال كلمةً ما يَسُرُّني أنَّ لي بهذه الدنيا »(١) .

## دُعابَةٌ ... !

وإليكَ أخي الكريم هذه الدُّعابَة النبوية الكريمة ، واللَّفتة العاطفية السارة ، يحدث بها رسولُ الله ﷺ عمرَ رضي الله عنه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بَيْنا أنا نائِمٌ

---

(١) أبو داود ، والترمذي ، واللفظ لأبي داود .

رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ، فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً . فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ » وفي رواية : « فذكرت غيرة عمر فوليت مدبراً » .

قال أبو هريرة : « فبكى عمرُ ونحن جميعاً في ذلك المجلس مع رسول الله ﷺ ، ثم قال عمر : بأبي أنت يا رسول الله ! أعَلَيْكَ أغارُ ؟ »[1] .

## مَنامٌ نَبَوِيٌّ :

وهذا منامٌ رآه رسول الله ﷺ ، يدل على عظمة هذين الرجلين : أبي بكر وعمر ، وما أفاء المسلمون من خلافتهما ، وحسن سيرتهما ، وما ذلك إلا لصحبتهما لرسول الله ﷺ ومحبتهما له .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم رأيْتُني على قَليبٍ عَلَيْها دلوٌ ، فَنَزَعْتُ منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابنُ أبي قُحافَةَ ، فنزع منها ذَنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ، ثم استَحالت غَرْباً فأخذها ابن الخطاب ، فَلَمْ أرَ عَبْقَرِيّاً من الناس ، ينزع نَزْعَ عمر ، حتى ضرب الناس بعطن » . وفي رواية : « فلم يزل ينزع حتى تولى الناس والحوض يتفجر »[2] .

☆ ☆ ☆

قال الإمام النووي رضي الله عنه : قال العلماء : « هذا المنام مثالٌ واضحٌ لما جرى لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما في خلافتهما ، وحسنِ سيرتهما وظهور

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

آثارهما ، وانتفاع الناس بها ، وكل ذلك مأخوذٌ من النبي ﷺ ومن بركته ، وآثارِ صُحبتِه وصادق محبته .

فكان النبي ﷺ هو صاحبَ الأمر ، فقام به أكمل قيام ، وقرر قواعد الإسلام ، ومَهَّدَ أموره ، وأوضح أصولَه وفروعَه ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأنزل الله تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ ديناً ﴾[1] .

ثم تُوفيَ رسول الله ﷺ فَخَلَفَهُ أبو بكر رضي الله عنه سنتين وأشهراً ، وهو المراد بقوله ﷺ : « ذنوباً أو ذنوبين » وهذا شك من الراوي ، والمراد : ذنوبان ، كما صرح به في الرواية الأخرى ، وحصل في خلافته قتال أهل الردة وقَطْعُ دابرهم واتساعُ الإسلام .

ثم توفي فَخَلَفَهُ عمرُ رضي الله عنه ، فاتسع الإسلام في زمنه ، وتقرر لهم من أحكامه مالم يَقَعْ مِثْلُه .

فعبّر بالقليب ( وهو البئر ) عن أمر المسلمين ، لما فيها من الماء الذي به حياتهم وصلاحهم ، وشبه أميرهم بالْمُسْتَقِي لهم ، وسقيه هو قيامه بمصالحهم وتدبير أمورهم .

وأما قوله ﷺ في أبي بكر رضي الله عنه : « وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ » فليس فيه حَطٌّ من فضيلة أبي بكر ، ولا إثباتُ فضيلةٍ لِعُمَرَ عليه ، وإنما هو إخبارٌ عن مدة ولايتهما ، وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها ، ولاتساع الإسلام وبلاده ، والأموال وغيرها من الغنائم والفتوحاتِ ، وتمصير الأمصار وتدوين الدواوين .

(١) المائدة ٥/٣

وأما قوله ﷺ : « والله يغفر لـه » فليس فيـه تنقيصٌ لـه ، ولا إشـارة إلى ذنب ، وإنما هي كلمةٌ كان المسلمون يَدعَمُونَ بها كلامهم ، ونَعْمت الدِّعامة .

وقد سبق في الحديث ، في صحيح مسلم : أنها كلمة كان المسلمون يقولونهـا : افْعَلْ كذا ، والله يغفر لك .

قال العلماء : « وفي كل هـذا إعلامٌ بخلافـةِ أبي بكر وعمر وصحـةِ ولايتها ، وبيان صفتِها وانتفاع المسلمين بها » اهـ .

☆ ☆ ☆

فرضي الله عن عمر مُحبـاً لرسـول الله ﷺ ، ورضي الله عن عمر وزيراً ، ورضي الله عن عمر بطلاً شجـاعـاً ، ورضي الله عن عمر أميراً للمـؤمنين ، عـادلاً منصفاً ، ورضي الله عن عمر أول حاكم ديمقراطي في الإسلام .



# الفصل الرّابع

# في حبّ عثمان رضي الله عنه

عثمان بن عفان بن أبي العاص الأمويُّ القرشيُّ ، ذوالأخلاق الكريمة والسّيرة الحسنة ، وكان حَياً عفيفاً ، وكان من السابقين إلى الإسلام ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ماعدا ( بدراً ) فقد تخلّف عنها لتمريض ( رُقَيَّةَ ) زوجِهِ بنت رسول الله ﷺ ، فقد زوّجه رسول الله ﷺ ابنتيه ( رقيّة وأم كلثوم ) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كان عندنا ثالثة لزوجناها عثمان » ، وفي رواية : « لوعندي أربعون بنتاً لزوّجتهن من عثمان » .

وكان سفيراً بين رسول الله ﷺ وبين قريش في عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَة ، ولما بايعَ الصّحابة رسول الله ﷺ على الموت ، قالَ رسولُ الله ﷺ : « إن عثمان في حاجَةِ الله وحاجة رسوله ، فضرب بيده اليمنى وقال : هذه يد عثمان على يده اليسرى ، فكانت يدُ رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم » .

إن هذا كلّهُ دليلٌ ساطعٌ على تلك المحبة العميقة المتبادلة بين رسول الله ﷺ وبين عثمان ، لكن هذه المحبّةَ تدفع عثمان رضي الله عنه إلى إقامة برهان جديد على شدّة محبّته لرسول الله ﷺ ، فينفق من ماله تلك النَّفَقَة الكبرى في تجهيز جيش ( العسرة ) ، وفي شراء بِئْرِ رُومَةَ ، وجعلِها سِقَايةً ( سبيلاً ) للمسلمين ، تلبية لرغبة رسول الله ﷺ في ذلك ، وفي تَوْسِعَةِ مَسْجِد رسول الله ﷺ .

فقد أخرج الترمذي ، عن عبد الرحمن بن خباب رضي الله عنه ، قال :

« شَهِـدتُ رسـولَ الله ﷺ وهـو يَحُثُّ على تجهيز جَيْشِ العُسْرَة ، فقـام عثمان بن عفـان ، فقـال : يـارسول الله عليَّ مِئَـةُ بعير بـأحلاسهـا وأقْتـابهـا في سبيل الله ، ثم حضَّ على الجيش ، فقام عثمان فقال : عليَّ مِئتـا بعير بـأحلاسهـا وأقتابها في سبيل الله ، ثم حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفـان فقـال : عليَّ ثلاث مئة بعير بأحلاسها[1] وأقتابها في سبيل الله ، فـأنـا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر ، وهو يقـول : مـا على عثمان مـافعـل بعـد هـذه ، مـا على عثمان مافعل بعد هذه ؟ » .

وقَدِم رسول الله ﷺ المدينة ، وليس بها ماء يُسْتَعْذَبُ إلا ( بئْرَ رُومَـةَ ) ، فقـال رسـول الله ﷺ : « مَنْ يشتريهـا ويجعلهـا للمسلمين ، دَلْوُهُ فيهـا مـع دِلائِهِم ، بِخَيْرٍ له منها في الجنة ؟ فاشتراها عثمان ، وجعلها للمسلمين » .

وقال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَشْتَري بُقْعَةَ ( آل فلان ) فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة ؟ » ، فاشتراها عثمان بعشرين ألفاً ، أو بِخَمْسَـةٍ وعشرين ألفاً ، وجعلها في المسجد[2] .

هذه النَّفقاتُ الكبرى والبذلُ السَّخِي التي أوجبت لصاحبها الجنّة ، بشهـادة الرسول ﷺ ، إن دلّت على شيء ، فإنما تدلُّ على ذلـك الإيمـان الراسخ واليقين القوي في وعد الله ورسوله ﷺ ، وبالتـالي على تلـك المحبـة لرسول الله ﷺ ، التي جعلته يبذل كل ذلك راضياً مطمئناً التماساً لمرضاة ( حبيبه ) .

☆ ☆ ☆

---

(١) الأحلاس : الأكسية التي تكون على ظهور الإبل تحت الرحال والأقتاب .

(٢) الترمذي ، والنسائي .

والمـال ـ كما يقولون ـ هـو عصب الحيـاة ، وهـو يعـدل النفس في الضّنّ بـه والحرص عليـه والـدفـاع عنـه ، والإنسـان يُحِبُّ مـالَـهُ بحسب فطرتـه ، وهـو حريص على الاستزادة منه شحيح في بذله وإنفاقه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَـدِيـدٌ ﴾[1] . وقـال عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَـزَائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذَنْ لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ ﴾[2] .

فإذا بسط عثمان يده في هذا البذل ، وسخـا بهـذه المقـادير الضخمـة راضيـاً مطمئناً ، فإن ذلك لا يكون إلا بداعٍ مُلحٍّ ، جعله يتغلب على فطرتـه في حبّ المال وحيازته وجمعه .

وما ذلك الداعي الملح إلا حبُّه لله ورسوله ﷺ ، وشدةُ إيقـانـه بوعـد الله ورسـولـه ، لـذلـك كان عثمان رضي الله عنـه خَيْرَ قـدوةٍ لمن يـأتي بعـده ، ممن يُكَدسون الأموال والأمةُ بحاجةٍ إليها لمشاريعها ، ومصالحها العـامـة التي تحفـظ كيانها ، وتُعَزِّزُ قوتها أمام عدوها .

ونفقات عثمان هذه في تجهيز جيش العسرة ، حفظها له التاريخ ، وجـاءت حولها روايات كثيرة ، تقول إحداها : إنه جهَّز ثُلُث الجيش من مَالِهِ الخـاص ، وكان الجيش ثلاثين ألفاً ، وقيل : أربعين ، وقيل : سبعين .

☆ ☆ ☆

فرضي الله عن عثمان ثـالث الخلفـاء الراشـدين ، ورضي الله عن عثمان ذي النـورين صهر سيِّـد الخلـق أجمعين ، ورضي الله عن عثمان خير قـدوة في البذل والسخاء في سبيل ربِّ العالمين .

---

(١) العاديات ١٠٠/٨

(٢) الإسراء ١٧/١٠٠

# الفصل الخامس

# في حبِّ علي رضي الله عنه وكرّم وجهه

هـو علي بن أبي طـالب بن عبـد المطلب ابن عم رسـول الله ﷺ ، كان أول من أجاب إلى الإسلام ، وكان لـه الشرف العظيم بِبَيَـاتِـهِ موضع رسول الله ﷺ حين ترك مكة مهاجراً ، حتى لا يرتاب المُتَرَصِّدُونَ في وجوده بِبَيْتِه ، ثم هـاجر بعد أن عهد إليه الرسول ﷺ بتأدية الودائع التي كانت عنده لأهل مكـة ، وهو صهر رسول الله ﷺ وزوج ابنته السيّدة فاطمة رضي الله عنها ، وكان له الأثرُ المحمود والمقامُ الـذي لا يُجْهَل في جميع الغزوات ، لأنـه كان شجـاعـاً مقـدامـاً ، يخـوض الغمرات ولا يبـالي بـالشـدائـد ، ولا يَهـابُ الأبطـال ولا يرهب الشجعان .

ثم أصبح بعدُ رابع الخلفاء الراشدين .

## إسلامه رضي الله عنه :

وفي قصة إسلامه رضي الله عنه حادثة طريفة ، وكلامٌ له يدلُّ على النُّضوج الفكري المبكِّر والمنطق الصحيح السليم .

فقد روى المؤرِّخون : أن الله تعالى لما شرّف محمداً ﷺ بهذا الدين الجديد ، كانت السيدة ( خديجـة ) رضي الله عنهـا أول امرأة سـارعت إلى الإسلام ، لِمَـا كانت تراه في زوجها رسول الله ﷺ من النّبل ومكارم الأخلاق .

وبينما محمد ﷺ وخديجة يصليان يوماً ، إذ دخل عليهما علي بن أبي طالب مُفاجأةً فرآهما يركعان ويسجدان ، ويتلُوَان ماتَيَسَّر مما أوحاه الله يومئذٍ من القرآن ، فوقف الشاب الناشئ دَهِشاً حتى أتَمَّا صلاتهما ، ثم سألهما : لمن تسجدان ؟ فأجابه محمد ﷺ : « إنما نسجد لله الذي بعثني نبيّاً ، وأمرني أن أدعوَ الناس إليه ، ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وإلى دينه الذي بُعِثَ بِهِ ، وإلى إنكار الأصنام ، من أمثال اللات والعُزَّى ، وتلا الرسول الكريم ﷺ ماتيسَّر من القرآن .

فأخذ عليٌّ عن نفسه ، وبهره جمالُ الآيات وإعجازُها ، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه أبا طالب ثم قضى ليله مضطرباً ، حتى إذا أصبح أعلن للرسول عليه الصلاة والسلام أنه اتبعه ، وآمن بما جاء به من غير حاجةٍ إلى رأي أبي طالب ، ثم أردف رضي الله عنه يقول :

**« لقد خلقني الله من غير أن يُشاورَ أبا طالب ، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله ؟ » .**

بهذا كان عليٌّ رضي الله عنه أولَ رجل أسلم ، وأولَ إنسان وَقَفَ نَفْسَهُ وحَيَاتَهُ وجِهادَهُ في سبيل الدِّين الذي اعتَنَقَهُ وآمَنَ بِهِ .

☆ ☆ ☆

## آية حُبِّه رضي الله عنه لرسول الله ﷺ :

إن من أبرز أعماله التي تدلُّ على عظيم محبَّته ، وعظيم تضحيته ، وعظيم فدائه ، مافعله كرّم الله وجهه يوم الهجرة ، هجرة النَّبي الكريم ﷺ .

إن عَمَلَه رضي الله عنه في هذه الحادثة من أجلّ ماعرف التاريخ ، من المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان والمحبة ، قوةً ورَوْعَةً .

ذلك أن النّبي ﷺ حين اعتزم الهجرة ومغادرة مكة ، لم يكن لديه ظلٌّ من رَيْبٍ في أن قريشاً ستَتَبَّعُه وتَقْفُو أثَرَهُ ، فخطَّط عليه الصلاة والسلام لهجرته طرقاً غير مألوفة ، وقرّر أن يخرج إلى سفره في موعد كذلك غير مألوف .

وكان هؤلاء الشبان الذين أعَدَّتْهُمْ قريش لقتله ، يحاصرون داره في الليل مخافة أن يَفِرَّ .

في ليلة الهجرة هذه أسَرَّ محمد عليه الصلاة والسلام إلى عليٍّ بن أبي طالب أن يَتَسَجَّى بُرْدَةَ الْحَضْرَمِيَّ الأخضر ، وأن ينام في فراشه ، وأمره أن يتخلّف بعده بمكّة ، حتى يؤدِّي الودائع التي كانت عنده للناس .

ولم يتردَّدْ عليّ في تلبية الطلب ، ولم يتقاعس عن تقديم نفسه ، فداء للحبيب ، وتوصُّلاً لإنجاح خطته .

إن أربعين سيفاً تُحيط بهذا المكان ، بيد رجال أشداء ، تتفجَّر قلوبهم غيظاً وحنقاً على محمدٍ ﷺ ، وكل مَنِ اتَّبع محمداً ﷺ ، ومُنْيَة كل واحد منهم أن يغمس سيفه في ذلك الدّم الزَّكي الطّهور .

وماذا يكون موقفُ هؤلاء الحاقدين إذا أمضوا ليلة طويلة في حراستهم هذه ، ينتظرون الصباح ، ليتموا مهمتهم في المهاجر العظيم ، ثم يخيب أملُهم من طَلَبتِهِم ، ويجدون مَنْ ضلَّلهم عنها وأوهمهم أنه هو ؟

أفلا يكون ذلك باعثاً لغَضَبِهِم ، ومثيراً لكل ماعندهم من حقد وضَغِيْنَةٍ ،

لا يطفأ أوارها ولا تخمد نارها ، إلا بتقطيع مَنْ كان السَّبب في خيبتهم إرباً إرباً ، ليشفي غيظ صدورهم ، ويعوض من فشلهم في مقصودهم ؟

نعم إن ذلك متوقع ، وإن ذلك كله أقل ما يجب أن يصدر من هؤلاء الشبان .

لكن علياً البطل ، لكن علياً الشجاع . لكن علياً المحب ، لم يلتفت إلى هذه المخاطر المحدقة ، ونام على فراش الحبيب يفديه بنفسه ، مغتبطاً بهذا الفداء راضية به نَفْسُه .

☆ ☆ ☆

وجعل هؤلاء الفِتْيَةُ من قريش ينظرون من فُرْجَةٍ إلى مكانِ نَوْمِ النَّبي ﷺ ، فيرون في الفراش رجلاً فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يَفِرّ .

أما رسول الله ﷺ فقد خرج من بينهم فلم يره أحدٌ منهم ، إذ أخذ الله أبصارهم ، بعد أن نَثَرَ الرسول ﷺ قبضة من تراب ، وهو يقرأ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾(١) .

ولم يتجاسروا على الدخول عليه ﷺ في بيته لِهَيْبَتِه ، ولأن البيوت لها حرمتها حتى عند هؤلاء الجاهلين .

وقانون عدم الدخول على البيوت واحترامُ أهلها ، وعدم الإحاطة بها من الشرطة وغيرهم قانون معروف لدى الشعوب المتحضرة .

وأخيراً أصبح القوم الذين كانوا يحرسون علياً لا رسول الله ﷺ ، فلما خرج

---

(١) يس ٣٦/٨ ـ ٩

رضي الله عنه سقط في أيديهم ، وحفظه الله تعالى أيضاً منهم ، وأنْشَدَ رضي الله عنه وكرّم وجهه يقولُ ، مشيراً إلى ما مَنَّ الله به عليه :

وَقَيْتُ بنفسي خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى ... ومَنْ طافَ بالبيتِ العَتيقِ وبالحِجْرِ
رسولُ إلـه خـاف أن يمكروا بـه ... فنجـاه ذو الطـول الإلـهُ من المكْرِ
وبـات رسـولُ الله في الغـار آمنـاً ... وقد سـار في حفـظ الإلـه وفي سِتْرِ
وبتُّ أداعيهم ومـا يتهمـونني ... وقد وُطنَتْ نفسي على القتل والأسْرِ

☆ ☆ ☆

أورد الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه ( إحياء علوم الدّين ) أنه ليلةَ بات عليٌّ علَى فِراش رسول الله ﷺ ، أوحى الله تعالى إلى جبريل ، وميكائيل ، أني قد آخيت بينكما ، وجعلت عُمْرَ أحدكما أطول من أخيه ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختار كلاهما الحياة وأحَبَّاها ، فأوحى الله تعالى إليهما : « أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب ، آخيت بينه وبين محمد ، فبات على فِراشِه يفديه بنفسه ، يؤثره بالحياة ! اهبطا إلى الأرض ، فاحفظاه من عدوّه ، فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، ينادي ويقول : بَخٍ بَخٍ مَنْ مِثْلُكَ ياابن أبي طالب ، يباهي الله بك ملائكته ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ واللهُ رَؤوفٌ بِالعِبادِ ﴾[1] .

وممن جعل هذه الحادثة سبباً لنزول هذه الآية أيضاً القرطبي رحمه الله[2] .



(١) البقرة ٢/٢٠٧

(٢) جزء ٣/٢١ من تفسيره .

أخرج الترمـــذي عن عبـــد الله بن عمر رضي الله عنهما قـــال : « لمـــا آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، جاءه عليّ تـدمع عينـاه ، فقـال : يـا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخِ بيني وبَيْنَ أحَدٍ ، قال : فسمعت رسول الله ﷺ ، يقول له : أنت أخي في الدنيا والآخرة » .



وأخرج البخاري ومسلم والترمذي من حديث سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنـه « أن رسـول الله ﷺ خلّف علياً في غَـزْوَةِ تبـوك فقـال : يـا رسـول الله تُخَلِّفُني في النسـاء والصبيـان ؟ فقـال ﷺ : أمـا ترضى أن تكـونَ مِنّي بمنزلـة هارون من موسى غير أنه لا نبيَّ بَعْدي » ؟



وأخرج مسلم والترمذي والنسائي من حـديث زِرِّ بن حُبَيْشٍ قـال : سمعت عليّ بن أبي طـالب يقول : « والـذي فَلَقَ الحبَّـة وبرأ النَّسَمَـة ، إنـه لَعَهْـدُ النَّبي الأُميّ إليَّ أنه : لا يحبني إلا مؤمن ولا يُبْغِضُني إلا منافق » .

☆ ☆ ☆

ومما يؤكد محبَّته رضي الله عنه وكرَّم وجهه : لله ورسوله ، ما رواه البخاري ومسلم من حـديث سهل بن سعـد رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال يـوم خيبر : « لأُعْطِيَنَّ الرَّاية غداً رجلاً يَفْتَحُ الله على يديه ، **يُحِبُّ الله ورسولـه** ، **ويُحِبُّه الله ورسولُهُ** ، قال : فبات الناس يَدُوكون[1] ليلتهم : أيُّهم يُعْطاهـا ، فقال : أيْنَ عَليُّ بْنُ أبي طالب ؟ فقيل : يا رسول الله يشتكي عَيْنَيْهِ ، فقـال :

(١) بات القوم يدوكون دوكاً : إذا خاضوا في أمر ، واهتموا فيه .

فأرسلوا إليه ، فأتي به فَبَصَقَ في عينيه ، ودعا له بِخَيْرٍ ، فَبَرَأَ حتى كأن لم يكن به وجعٌ فأعطاه الراية ، فقال علي : يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : انْفُذْ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يَجبُ عليهم من حقوق الله عزّ وجلّ فيهم ، فوالله لأن يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم » .

وقع في رواية ثانية لمسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ » .

وواضح أنه لم يرغب في الإمارة للعظمة والرئاسة ، ولكنه رغبها يومئذٍ ، ليحصل على شهادة النَّبي الكريم ﷺ لمن يُعْطَى الرّايةَ بأنه : « يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله » .



هذا هو عليّ بن أبي طالب ، أول المسلمين وسيِّد المحبين ، وزعيم البُلَغاء وزوج الزهراء ، وإمام الأتقياء ورابع الخلفاء ، كرّم الله وجهه ورضي عنه .



# الفصل السادس

# في حبِّ الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم للنَّبيِّ ﷺ

## ١ ـ محبّة سعد بن معاذ للنّبي ﷺ :

أسنـد ابن إسحـاق عن عبـد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما أن سعـد بن معاذ ، رضي الله عنـه قـال ( أي في غزوة بـدر ) : « يـانبيّ الله ! ألا نبني لـك عريشاً[1] تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك رَكائِبَكَ ، ثم نلقى عـدونـا ، فـإن أعزنـا الله وأظهرنـا على عـدونـا كان ذلـك مـاأحْبَبْنـا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنـك أقوام مـانحن بـأشـدَّ حبّاً لك منهم ، ولو ظنوا أنَّك تَلْقى حرْبـاً مـاتخلَّفوا عنـك ، يمنعـك الله بهم ، يناصحوك ويجاهدون معك ، فأثنى عليـه رسول الله خيراً ، ودعـا لـه بخير . ثم بُنِيَ لرسولِ الله ﷺ عَريشٌ كان فيه » .

☆ ☆ ☆

هـذا مَـوْضـعٌ لِـوَقْفَـةِ إعجـاب بصـدق وفـاء المسلمين ، وعظيم ( مَحَبَّتِهِمْ ) لرسول الله ﷺ وإيمانهم برسالته .

فهـاهم أولاء يعلمون أن قريشـاً تَفُوقُهُمْ في العـدد ، في هـذه الغزوة : غـزوة بـدر ، وأنهـا ثلاثـة أمثـالهم ، ومع ذلـك اعتزموا الوقوف في وجههـا وصمموا على قتالها .

(١) العريش : كل مايستظلُّ به .

وهاهم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم ، فلم يصبح الكسب المادي هو الذي يَحْفِزهم على القتال ، ومع ذلك قاموا إلى جانب النّبي ﷺ يؤيّدونه ويُعَزِّزُونَه .

وهاهم أولاء تَتَرَدَّدُ نفوسُهم بين الطمع في النصر وخوف الهزيمة ، نظراً لعدم التكافؤ بين القوتين المتَقَابِلَتَيْنِ ، ورغم هذا كله ، فكروا في حماية النّبي ﷺ وتَوْقِيَتِهِ ، خشية أن يظفَرَ به عدوُّه ، ومَهَّدُوا له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينة ، ليتابع جهاده بمعونتهم من جديد .

فأي حُبٍّ أدعى للإعجاب من هذا الحبّ ؟ وأيُّ إيمان يَكْفُلُ النصر كهذا الإيمان ؟

**كلمةٌ مُعَبِّرة :**

وهذا موقف آخر مشرفٌ لسعد ومعبرٌ عن رسوخ هذا الحب ، رسوخاً لا تُزَعْزِعُهُ العواصف مهما عظمت واشتدت .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خروجُ قريش من مكة متجهةً نحو المدينة ، وعلم اعتزامها على استئصال ( محمد ) وأصحابه ، قال : « أشيروا عليّ أيها الناس ، وكان يريد بكلمته الأنصار الذين بايعوه على نصرته ، على اعتداء داخل مدينتهم ، ولم يبايعوه على الدفاع خارج مدينتهم .

فلما أحسّ الأنصار أنه يريدهم ، وكان ( سعد ) صاحب رايَتِهم ، التفت إلى رسول الله ﷺ وقال : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجَلْ ، قال سَعدٌ : يارسول الله ! لقد آمنّا بك وصدقناك ، وشهدنا أنّ ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت ،

فنحن معك ، فوالـذي بعثـك ، لواستعرضت بنـا هـذا البحر فَخُضْتَـهُ لخضنـاه معك ، وما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تَلْقَى بنـا عـدونـا غـداً ، إنـا لَصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء . لعلّ الله يريك منا ماتَقَرُّ بـه عينُـك ، فسِرْ بنا على بركة الله .

ولم يكد ( سعد ) يتم كلامه حتى أشرق وجه ( محمـد ) ﷺ بـالمسرّة ، وبـدا عليه كلُّ النشاط ، وأمر القومَ بالمسير وبَشَّرَهُم بالنصر » .

☆ ☆ ☆

## سعد والمبشر الأول في الإسلام :

وهـذا موقف آخر لسعـد سجّلـه لـه التـاريخ بحروف من نـور ، حيث كان سبباً مباشراً في إسلام قومه كلهم .

وذلـك أنـه لمـا استمع إلى المبشر الأول ( مصعب بن عمير ) الـذي بعثـه رسول الله ﷺ إلى المدينة ، يفقّه المسلمين بدينهم ، كان من أثر ذلـك أن ذهب ( سعـد ) إلى قومـه ، فقـال : يـابني عبـد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيّدُنا وأوْصَلُنا ، وأفْضَلُنا رأياً وأيْمَنُنا نَقِيبـةً ، قـال : فـإن كلام نسـائكم ورجالكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فـأسلم بنو عبـد الأشهل جميعـاً ، رجالاً ونساءً .

إنـه الحبّ الصـادق العنيف ، أحبوا رسول الله ﷺ ، وأحبـوا دينـه الـذي جاء به من عند ربّه ، ثم أصبحوا من فورهم ( دُعاةً ) إلى هذا الدين .



## ٢ ـ حُبٌّ ثَوْبانَ :

وهذا أيضاً واحدٌ من المحبين الكُثُر لرسول الله ﷺ ، هو ( ثوبان ) مولى الرسول الكريم ﷺ ، كان شديدَ الحبّ له قليلَ الصبر عنه ، فأتاه ذات ليلة وقد تغيَّر لونه ونَحَل جِسْمه ، يُعْرَفُ في وجهه الحزنُ ، فقال له رسول الله : « ياثوبان ! ماغَيَّرَ لونَك ؟ فقال : يارسول الله ، مابي وجعٌ ولا ضُرٌّ ، غير أني إذا لم أرَكَ اشتقت إليك ، واستوحشتُ وحشةً شديدةً حتى ألقاك ، **ولولا أني أجيءُ فأنظرُ إليك لظننت أن نفسي تخرج** ، ثم ذكرتُ الآخرة ، وأخاف ألاّ أراك هناك ؛ لأني عرفت أنك مع النَّبيّين ، وأني إن دَخلتُ الجنةَ كنتُ في منزلةٍ هي أدنى من منزلتكَ ، وإن لم أدخل الجنة فذلك حين لاأراك أبداً ، فيشقّ ذلك عليّ وأحبُّ أن أكون معك .

فلم يَرُدَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهَداء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفيقاً ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى باللهِ عَليماً ﴾[1] .

☆ ☆ ☆

## يَفي بعهده :

وثوبان هذا هو الذي بايع رسول الله ﷺ ، ألاّ يسأل أحداً شيئاً ، فوفّى بعهده .

فقد أخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يُبايعُ ؟ فقال ثوبان مولى رسول الله : بايِعْنا

(١) النساء ٤/٧٠

يـا رسـول الله ! قـال : على ألاَّ تسـأل أحـداً شيئـاً ، فقـال ثـوبـان : فَمَـا لَـهُ يا رسول الله ؟ قال : الجنة ، فَبَـايَعَـهُ ثوبـانُ ، قـال أبو أمـامـة : فلقـد رأيتـه بمكة ، في أجمع ما يكون من الناس ، يَسْقُط سَوطُهُ وهو راكب ، فربما وقع على عاتِقِ رجل ، فيناوله إياه ، فلا يأخذه حتى ينزلَ هو فيأخُذَه »[1] .

☆ ☆ ☆

## طُرْفة أدبية :

بمنـاسبـة نُحُـول المحبين وهُـزَالِهم واصفرارِ وجـوهِهِم ، ذكرتُ قـول الإمـام سيف الدين الباخزري : سعيدِ بنِ المطهَّر ، الحافظ المحدّث الصُّوفي المتوفى سنـة ٦٩٩ هـ :

يَقُولُـونَ أجسـامُ المحبين نِضْـوةٌ[2]    وأَنْتَ سَمِينٌ لَسْتَ غيرَ مُرائِي
فقلت لأن الحبَّ خَـالَف طَبْعَهُم    وَوَافَقَـهُ طبعي فكان غِـذائي

وكان رحمه الله يُجيبُ بهذين البيتين عن البيتين المشهورين :

ولما أعديتُ الحبَّ قالَتْ: كَذَبْتَني    فَمَالِي أرى الأعْضاءَ مِنْكَ كواسيا؟
فلا حبَّ حتَّى يَلْصَقَ الجلدُ بالْحَشَا    وتَذْهَلَ حتّى لاتُجيب المناديا[3]

☆ ☆ ☆

(١) من الترغيب والترهيب ٩٩/٢

(٢) النضو بالكسر : المهزول .

(٣) من المصنوع في معرفة الموضوع للقاري ١٥٧

## ٣ ـ حبُّ كَعْبِ بنِ عُجْرَة :

أخرج الطبراني عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال :

« أتَيْتُ النَّبيّ ﷺ فرأيتُه مُتَغيّراً ، فقلت : يارسول الله بأبي أنت وأمي أراك متغيراً ؟ قال : مادخل جَوْفي ما يَدْخُلُ جوفَ ذاتِ كبدٍ منذ ثلاث ، قال كعب : فذهبتُ ، فإذا يهودي يسقي إبلاً له ، فَسَقَيْتُ له على كل دلو بتمرة ، فجمعت تمراً ، فأتيت به النَّبي ﷺ ، فقال : من أين لك يا كعب ؟ فأخبرته ، فقال النَّبي ﷺ : أتُحِبّني يا كعب ؟ قلت : بأبي أنت نعم ، قال : إن الفقر أسرع إلى من يحبّني من السَّيل إلى مَعَادِنه[1] ، وإنه سيصيبك بلاءٌ ، فأعِدَّ له تِجْفافاً[2] ، قال : ففقده النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ، فقال : مافعل كعب ؟ قالوا : مريض ، فخرج النَّبي ﷺ يمشي حتى دخل عليه ، فقال : أَبْشِر يا كعب ! فقالت أمه : هنيئاً لك الجنةُ يا كعب ! فقال النَّبي ﷺ : مَنْ هذه الْمُتَألِّيَةُ على الله ؟ قلت : هي أمي يارسول الله ! قال : مايُدْرِيكِ يا أم كعب ؟ لَعَلَّ كَعْباً قال مالا ينفعه ، ومنع مالا يُغْنِيهِ »[3] .

☆ ☆ ☆

## ٤ ـ محبة ( طَلْحَة بن البراء ) للنَّبي ﷺ :

أخرج الطبراني عن حُصَين بن وَحْوَحٍ الأنصاري أن طلحة بن البراء رضي الله عنه لما لَقِيَ النَّبي ﷺ فجعل يَلْصقُ برسول الله ﷺ وَيُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ ، قال : يارسول الله مُرْني بما أحْبَبْتَ ولا أعصي لك أمراً ، فعجب

(١) المعادن : مركز كل شيء عن النهاية .

(٢) التّجْفاف : شيء يقي من الأذى .

(٣) الترغيب عن الحافظ أبي الحسن .

رسول الله ﷺ لذلك وَهُوَ غُلامٌ ، فقال عند ذلك : اذهب فَاقْتُلْ أباك ، فخرج مُولياً ليفعل ، فدعاه النَّبي ﷺ ، فقال له : أقْبِلْ فأني لم أُبعث بقطيعة رحم . فمرض طلحة بعد ذلك ، فأتاه النَّبي ﷺ يَعُودُهُ في الشتاء ، في بردٍ وغَيْم ، فلما انصرف قال لأهله : لاأرى طَلْحَةَ إلا قد حَدَثَ فيه الموتُ فآذنوني[1] به ، حتى أشْهَدَهُ وأُصَلِّيَ عليه وعَجِّلُوهُ ، فلم يَبْلُغِ النَّبي بني سالم بن عوف حتى تُوفِّيَ ، وجَنَّ عليه الليلُ ، فكان فيا قال طلحةُ : ادفنوني وألحقوني بِرَبِّي ، ولا تَدْعُو رسول الله ﷺ ، فإني أخاف عليه اليهود أن يُصابَ في سببي . فأُخْبِرَ النَّبيُّ ﷺ حين أصبح ، فجاء حتى وقف على قَبْرِهِ ، فصفَّ الناس معه ، ثم رفع يديه فقال : « **اللهم إلقَ طَلْحَةَ تضحك إليه ، ويضحك إليك** »[2] .

**رحم الله طلحة الغلام ( المحبّ )** ، الذي فاز بهذا الدعاء العظيم .

☆ ☆ ☆

## ٥ ـ ماقاله ( زيد بن الدَّثِنَّة ) في حبِّ الرسول ﷺ :

ولبيان ماقاله زيدٌ معبّراً عن شديد حبّه لرسول الله ﷺ ، لابدّ لنا من ذكر الحادثة التي اسْتُشْهِدَ فيها زيد بتمامها .

فقد ذكر أصحاب السِّيَر : أن رهطاً من عَضَل والقارة قدموا على رسول الله ﷺ بعد أُحُدٍ ، فقالوا : يا رسول الله إن فينا إسلاماً ، فابعثْ معنا نفراً من أصحابك ، يعلموننا شرائعهُ ويقرؤننا القرآن ، وكان الرسول الكريم ﷺ يبعث من أصحابه كلما دُعِيَ إلى ذلك ، ليؤدوا هذه المهمة الدينية

---

(١) أعلموني إذا مات .

(٢) حياة الصحابة ، عن الإصابة ٢/٢٢٧

السامية ، وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحق ، لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط ، وساروا معهم فلمّا كانوا جميعاً على ماءٍ لِهُذَيْل بالحجاز بناحية تدعى ( الرَّجِيع ) غدروا بهم ، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلاً ، ولم يَرُعِ المسلمون الستة وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشَوْهم ، فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا ، لكن هُذَيلاً قالت لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألاّ نقتلكم ، ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض ، وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكّة فرادى إنما هو المذلّة والهوان ، وما هو شرّ من القتل ، فأبوا ما وعدت هذيل وانبَرَوا لقتالهم ، وهو يعلمون أنهم في قلّة عددهم لا يُطيقونهم ، وقتلت هذيل ثلاثة منهم ولانَ الثلاثة الباقون ، فأمسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرى ، وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها .

فلما كانوا ببعض الطريق ، انتزع عبد الله بن طارق أحد المسلمين الثلاثة الأسرى يَدَهُ من غُلِّ الأسر ثم أخذ سَيْفَهُ ، فاستأخر عن القوم ، وطفقوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه .

أما الأسيران الآخران ، فباعوهما من أهل مكة ، وكان ( زيد بن الدّثنة ) من نصيب صفوان بن أمية الذي سارع إلى شرائه ليقتله بأبيه أُمَيَّة بن خلف الذي قتله المسلمون في ( بدر ) .

فأخرجوه إلى التنعيم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ليشهدوا قتله ، وكان فيهم أبو سفيان ، فلما قدم للقتل سأله أبو سفيان قائلاً : « أنشدك بالله يا زيد ! أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تُضْرَبُ عُنُقُهُ وأنت في أهلك ؟ » .

**قال زيد : « والله ماأُحبّ أن محمداً ﷺ في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالسٌ في أهلي » . فعجب أبو سفيان وقال : « مارأيت أحداً من الناس يُحِبُّهُ أصحابُهُ ، كما يحبُّ أصحابُ محمدٍ محمداً » .**

☆ ☆ ☆

## ٦ ـ خُبَيْب ومحبَّته :

أما خُبَيْبٌ فقد حُبِسَ حتى خرجوا به ليصلبوه ، فقال لهم : « إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا ، فلبوا طلبه فركع ركعتين أتَمَّهُما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم وقال : أما والله لولا أن تظنّوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ، ورفعوه إلى خشبة فلما أوثقوه إليها ، جاء أبناء المشركين الذين قتلوا في بدر ، فصوبوا إليه سهامهم ، ونادَوْه مناشدين : أتحبّ أن محمداً مكانك ؟ ، فقال : **لا والله العظيم ! ماأحبُّ أن يَفْدِيني بشوكة يشاكُها في قدمه** ، فضحكوا ثم قتلوه » .

ومما يروى عنه رضي الله عنه ، أنه قال حين رفعوه إلى الخشبة :

لَعَمْرِي ماأحْفِلُ إذا مِتُّ مسلماً ‏ ‏ على أي حال كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ‏ ‏ يبارِكْ على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وكذلك استُشهِد الصحابيان العظيمان المحبان ، وكانا من الخالدين .

## نوع آخر من المحبة :

أخرج البيهقي عن الزهري قال : حدّثني مَنْ لاأتَّهِمُ من الأنصار : « أن رسول الله ﷺ كان إذا توضّأ أو تَنَخَّمَ ابتدروا نُخَامته فمسحوا بها وجوههم وجلودهم . فقال رسول الله ﷺ : لِمَ تفعلون هذا ؟ قالوا : نلتمس به البركة ،

فقال رسول الله ﷺ : من أحبَّ أن يحبَّه الله ورسولُه ، فليصدق الحديث ، وليُؤدِّ الأمانة ، ولا يؤذِ جاره » .

وعن عروة بن مسعود قال : « فوالله ماتنخّم رسول الله ﷺ إلا وقعت في كفِّ رجل منهم ، فدلك بها وجْهَهُ وجلْدَه ، وإذا أمرهم إبتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يَقْتَتِلُونَ على وضوئِه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّونَ النظر إليه تعظيماً له » . ثم قال عروةُ لأصحابه : « أيْ قوم والله لقد وفدت على الملوك ، وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إنْ رأيت ملكاً قطُّ يعظِّمه أصحابه ، ما يعظِّم أصحاب محمدٍ محمداً »[1] .

## نوع آخر من المحبة :

عن أسامة بن شَرِيك رضي الله عنه قال : « أتيت النَّبي ﷺ وأصحابهُ حَوْلَهُ كأنما على رؤوسهم الطير »[2] .

وعن أنس رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه : من المهاجرين والأنصار ، وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلا يرفع أحد منهم إليه بَصَرَه إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه ، وينظر إليهما ، ويبتسمان إليه ، ويبتسم لهما »[3] .

## ٧ ـ ما فعله ابن الزبير رضي الله عنه :

روى أبو نعيم في الحلية عن كيسان مولى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : « دخل سلمان رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ، وإذا عبد الله بن

(١) قال عروة ذلك حين وفد على النَّبي ﷺ في صلح الحديبية .

(٢) رواه الأربعة .

(٣) أخرجه الترمذي .

الزبير معه طَسْتٌ يشرب مافيها ، فدخل عبد الله على رسول الله ﷺ فقال له : فَرَغْتَ ؟ قال : نعم . قال سلمان : ماذاك يا رسول الله ؟ قال : أعطيته مَحاجمي يُهريقُ مافيها . قال سلمان : ذاك شَرِبَهُ ، والذي بعثك بالحق ! قال ﷺ : شربته ؟ قال : نعم . قال : لِمْ ؟ قال : أحببت أن يكون دمُ رسول الله في جوفي ، فقال بيده على رأس ابن الزبير ، وقال : ويلٌ لك من الناس ، وويلٌ للناس منك ، ألا تمسك النار إلاّ قَسَمَ اليمين » .

وفي رواية : فَيَرَوْنَ أن القوة التي كانت في عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما من قوة دم رسول الله ﷺ .

## ٨ ـ مافعله مالك بن سنان رضي الله عنه :

أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أباه مالكَ بنَ سِنانٍ رضي الله عنه « لما أصيب رسول الله ﷺ في وجهه يوم ( أُحُدٍ ) ، مَصَّ دَمَ رسولِ الله وازْدَرَدَهُ ، فقيل له : أتَشْرَبُ الدم ؟ فقال : نعم ! أشرب دم رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : من خالَطَ دَمي دَمَهُ لا تمسه النار » .

## ٩ ـ قصة أبي أيوب وأم أيوب :

عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : « لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ قلت : بأبي وأمي أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل مني ، فقال رسول الله ﷺ : إن أرفقَ بنا أن نكون في السفل ، لما يغشانا من الناس ، فلقد رأيْتُني ليلة وقد انكسرت جَرَّةٌ لنا فيها ماء ، فأهْرِيقَ ماؤها فَقُمْتُ أنا وأمُّ أيوبَ بقطيفةٍ[1] لنا

---

(١) القطيفة : كساء له خمل .

مالنا لحافٌ غيرها ، نُنَشِّفُ بها الماء فَرَقاً من أن يصل إلى رسول الله منا شيءٌ يؤذيه ، وكنا نصنع طعاماً ، فإذا ردّ ما بقي منه تيمَّمْنا[1] موضع أصابعه فأكلنا منها نريد البركة ، فردَّ علينا عَشاءَهُ ليلة ، وكنا جعلنا فيه ثوماً أو بصلاً ، فلم نر فيه أثر أصابعه ، فذكرت له الذي كنا نصنع ، والذي رأينا من ردّه الطعام ، ولم يأكل منه شيئاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : إني وجدت فيه ريح هذه الشَّجَرَةَ ، وأنا رجل أناجى ، فلم أحب أن يوجد مني ريحُه ، فأما أنتم فكلوه »[2] .

## ١٠ ـ ما وقع بين عمر والعباس رضي الله عنهما :

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « كان للعباس ( مِيزابٌ )[3] على طريق عمر رضي الله عنه ، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة ، وقد كان ذُبِحَ للعباس فَرْخان[4] ، فلما وافى الميزاب صُبَّ فيه من دم الفرخين ، فأصاب عمر ، فأمر عمر بِقَلْعِه[5] ، ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها ، ثم جاء إلى الصلاة فصلى بالناس ، فأتاه العباس فقال : والله ! إنه الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ ، فقال عمر للعباس : عزمت عليك لَمّا صَعِدت على ظَهْري حتى تَضَعَه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ ، ففعل ذلك العباس »[6] .

وأخرج ابن سعد أيضاً عن يعقوب بن زيد بنحوه ، وزاد : « فحمل عمرُ

---

(١) تيمنا : قصدنا .

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم .

(٣) مجرى الماء .

(٤) الفرخ : ولد الطائر .

(٥) بإزالته .

(٦) رواه أحمد وابن عسكر وابن سعد .

العباسَ رضي الله عنهما على عُنُقِه فوضعَ رِجْلَيْهِ على مَنْكِبَيْ عمرَ ، ثم أعادَ الميزاب حيث كان ، فوضعه موضعه » .

### ١١ ـ محمدٌ الأعز :

وهذا عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول يسمع ما نزل من القرآن في شأن أبيه المنافق ، حيث قال : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾(١) كما أخبر الحق عز وجل عنه فيأتي أباه ويَسُلُّ سَيْفَه ، مُصْلَتاً فوق رأسه ، ويقول لأبيه : للهِ علي أن لا أغْمِدَهُ حتى تقول : محمد الأعزُّ وأنا الأذل ! قال أبوه : ويلك محمد الأعز وأنا الأذل ! فَبَلَغَتْ رسول الله ﷺ فأعجبه وشكرها له .

### ـ الابْنُ المؤمِنُ :

ثم لا يقف حب عبد الله المؤمن عند هذا الحد ، بل يأتي رسول الله ﷺ حينما أشيع بعد نزول الآيات التي فضحت أباه وصرحت بعدائه لرسول الله ﷺ أن رسول الله قاتِلُه لا محالة ، جاء عبد الله هذا وكان مسلماً حسن الإسلام ، ومحباً شديد الحب لرسول الله ، فقال : يا رسول الله ! إنه بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فَمُرْني أن أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج أنه ما كان بها من رجل أبَرّ بوالديه مِنّي ، ولكن أخشى أن تأمر بقتله غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقْتُلَهُ ، فأكون قتلت رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار .

---

(١) المنافقون ٦٣/٨

كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ للنبي الكريم ﷺ ، وما أحسب عبارة أبلغ من عبارته على إيجازها ، في قوة التعبير عن حالةٍ نفسيةٍ ، تضطرب فيها أقوى العوامل في النفس أثراً ، تضطرب فيها عوامل البر بالأب ، وصدق الإيمان ، ومحبة الرسول ﷺ ، مع النخوة العربية ، والحرص على سكينة المسلمين ، حتى لا تتواتر بينهم الثارات .

فهذا ابن يرى أباهُ سَيُقْتَلُ ، فلا يطلب إلى النبي ﷺ أن لا يقتله ، لأنه يؤمن بأن النبي ﷺ إنما يصدع بأمر ربه ، ويوقن بكفر أبيه ، وهو من خيفة ما يقتضيه البر بأبيه ، وما تَقْتَضيه النخوةُ العربية والكرامة أن يثأر له مِمّن قتله .

يريد أن يحمل على نفسه ، وأن يقتل هو أباه ، وأن يحمل إلى النبي ﷺ رأسه ، وإن قطَّعَ ذلك قلبه وفرى كبده ! وهو يجد في إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذي يكلف نفسه .

أيُّ جلادٍ بين الإيمانِ والعاطفةِ والخُلُقِ أشدُّ من هذا الجلاد ؟ وأيةُ مأساةٍ نفسيةٍ أفْتَكُ بصاحبها من هذه المأساة ؟ أفتدري بِمَ أجاب النبي الكريم ﷺ عبد الله بعد أن سمع قوله ؟

لقد قال له : « إنا لا نقتله بل نترفق به ، ونُحسِنُ صُحبتَه ما بقي معنا » .

يا لروعة العفو وجلاله ! محمد يترفق بهذا الذي يؤلب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه ، فيكون رفقُه به وعفوُه عنه أبعد أثراً من عقوبته لو أنه أنزلها به .

فقد كان عبد الله بن أبي بعد ذلك إذا حدث الحدَث يعاتبه قومه ويقولون له : إن حَياته بعضُ هباتِ محمدٍ له .

ـ عطف نبوي كريم :

ويحتفظ رسول الله ﷺ لعبد الله المؤمن بهذا الموقف النبيل ، فيقول عندما بلغه أن ابنَ أبيّ المنافق في الاحتضار : إذا جهزتموه فآذنوني ، حتى أصلي عليه ، أو كما قال ، ورغم معارضة عمر لذلك ، فقد صلى عليه رسول الله ﷺ تكريماً لابنه المؤمن المحب .

ففي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من سورة ( بَراءَة ) : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً ، وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ... ﴾[1] .

ـ برٌّ بالغٌ وإحسان جميل :

ويزيد رسول الله ﷺ بالبر والإحسان ، فيعطي عبد الله قميصه ليكفن به أباه ، قال ابن عمر : لما تُوُفي عبد الله بن أبيّ بن سلول ، جاء ابنَه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يُعْطِيَه قميصه يُكَفِّن فيه أباه ، فأعطاه إياه ... ثم سأله أن يصلي عليه فصلى .

☆ ☆ ☆

إن حبَّ ( عبد الله ) الشديدَ لرسول الله ﷺ ، وشعور الرسول ﷺ بهذا الحب ، جعله يتساهل معه في شأن أبيه المنافق إلى هذا الحد .

وأمر الحب عجيب ، فقد ينتهي المحبُّ في المحبة إلى أن يؤثر هوى المحبوب

---

(١) التوبة ٨٤/٩

على هوى نفسه ، فضلاً عن والده وولده والناس أجمعين ، كما مرّت الإشارة إلى ذلك في محاورة عمر مع النبي ﷺ .

بل قد يصل الأمر بالمحب إلى أن يحب أعداء نفسه ، لمشابهتهم محبوبَه ، كما قال القائل :

أشبهت أعـــدائي فصِرت أحِبُّهُمْ إذْ كانَ حَظي مِنْكَ حَظي مِنهمُو

فرضي الله عن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وهنيئاً له هذا الحبُّ .

☆ ☆ ☆

## ١٢ ـ رسول الله ﷺ سماني ( سُرَقاً ) فلم أدع ذلك أبداً :

وإليك أخي المؤمن هذه القصة ، التي تدل على مبلغ حبهم للرسول ﷺ ، لأقواله وأفعاله وكل ما يتصل به :

روى ابن الربيع وابن سعد عبد الرحمن بن السلماني قال : « كنت بمصر فقال لي رجل : ألا أدلك على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قلت : بلى ، فأشار إلى رجل فجئته ، فقلت : من أنت يرحمك الله ؟! قال : أنا ( سُرَقٌ )[1] بن أسد الجهني الأنصاري ، فقلت : سبحان الله ! ينبغي لك أن لا تسمى بهذا الاسم ، وأنت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ .

**قال : إن رسول الله ﷺ سماني ( سُرَقاً ) فلم أدع ذلك أبداً .**

فقلت : ولِمَ سماك سُرَقاً ؟ قال : قدم رجل من البادية ببعيرين له يبيعهما ، فابتعتهما منه وقلت له : انطلق معي حتى أعطيك ثمنها ، فدخلت

(١) سُرَق : بفتح الراء مخفف بوزن غُدَر وفُسَق ، وأصحاب الحديث يشددون الراء والصواب تخفيفها . اهـ من أسد الغابة .

بيتي ، ثم خرجت من خَلْفِ بيتي ، وقَضَيْتُ بثمن البعيرين حاجة لي ، وتَغَيَّبْتُ حتى ظننت أن الأعرابي قد ذهب ، فخرجت فإذا هو مقيم فأخذني فقدمني إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر . فقال النبي : ماحملك على ما صنعت ؟ قلت : قضيت بثمنها حاجة يا رسول الله ، قال : فَاقْضِه ، قلت : ليس عندي شيء ، قال : أنت سُرق اذهب به يا أعرابي ، فَبِعْهُ حتى تستوفي حقَّك ، فجعل الناس يسومونه بشيء ، فيلتفت إليهم فيقول : ماذا تريدون ؟ قالوا : وماذا نريد ؟ نريد أن نفتديك .

قال الأعرابي : فوالله ، ما منكم من أحدٍ ، أحوجَ إليه مني ، اذهب فقد أعتقتك »[1] .

لقد وصل الحب بهذا الرجل أن حرص على اسم سماه به رسول الله ﷺ فلم يعدل عنه أبداً ، فَرَضِيَ الله عنه وَرَحِمَهُ .

☆ ☆ ☆

## ١٣ ـ ثَمَرَةُ الحب سرعةُ الامتثال :

وهذا رجل يرى رسولُ الله ﷺ بيده خاتماً من ذهب ، فينزعه ويَطْرَحَهُ في الأرض ، فلا يَتَبَرَّمُ الرجل من ذلك ولا يَشْمَئِزُّ ، بل انشرح صدره وسُرَّ بذلك ، وآيةُ ذلك : أنه حَلَفَ ألاّ يأخُذَهُ بعد أن طَرَحَهُ رسول الله ﷺ تأكيداً لنهي النبي ﷺ ورغبته .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من

---

(١) حسن المحاضرة ، في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي ، وقال : أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه .

ذهب بيد رجل فنزعه فَطَرَحَهُ وقال : يعمد أحدكم إلى جَمْرةٍ من نار فيجعلها في يده ، فقيل للرجل ، بعد ماذهب رسول الله ﷺ : خُذْ خاتمك انْتَفِعْ به ، قال : **لا والله لاآخذه أبداً ، بعد أن طرحه رسول الله ﷺ** »[1] .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث : « وأما قول صاحب الخاتم حين قالوا له خذه : لاآخذه وقد طرحه رسول الله ﷺ ، ففيه المبالَغَةُ في امتثالِ أمر رسول الله ﷺ واجتنابِ نَهْيِهِ ، وعدمِ الترخص فيه بالتأويلاتِ الضعيفة ، ثم إن هذا الرجل ، إنما ترك الخاتم على سبيل الإباحةِ لمن أراد أخذه من الفقراء وغيرهم ، وحينئذٍ يجوز أخذه لمن شاء ، فإذا أخذه جاز تصرفه فيه ، ولو كان صاحِبُهُ أخذه لم يحرم عليه الأخْذُ والتصرفُ فيه بالبيع وغيره ، ولكن تَوَرَّعَ عن أخذه ، وأراد الصدقة به ، لأن الرسول ﷺ نهاه عن لبسه فقط ... » اهـ .

☆ ☆ ☆

## ١٤ ـ احترام فراش الرسول ﷺ :

وهذه ( أمُّ حبيبة ) بِنْتُ أبي سفيان بن حرب ، تطوي فراشَ رسول الله ﷺ ، حتى لا يجلس عليه أبوها ، وترى أن محبّتها لرسول الله ﷺ تقضي أن تحترم كلّ ما يتصل به ، ولا سيا أن أباها لا يزال على شركه .

فقد أخرج ابن سعد عن الزهري ، قال : « لما قدم أبو سفيان المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد غَزْوَ مَكَّةَ ، فكلمه أن يزيد في هُدْنَةِ الحديبية ، فلم يَقْبِلْ عليه رسول الله ﷺ ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبةَ رضي الله

(١) أخرجه مسلم في باب اللباس والزينة .

عنها ، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه ، فقال : يا بنية ، أرَغِبْتِ بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراشُ رسولِ الله ﷺ ، وأنت امرؤٌ نَجَسٌ مشرك ، فقال : يا بنية ! لقد أصابكِ بعدي شرٌّ ، وخرج مُغْضَباً » .

☆ ☆ ☆

## ١٥ ـ كلٌّ مصيبة بعدك جَلَلٌ :

وهذه امرأة من الأنصار ، تسمع إشاعة أن محمداً ﷺ قتل ، فيؤلمها النبأ ، وتخرج لتَسْتَجْلِيَ الحقيقةَ ، وتمرّ على أرض المعركة في ( أحُدٍ ) وتجدُ في الشهداء أباها وابنها وزوجها وأخاها ، فلا تأبَه بهم ولا تقف عندهم ، بل تندفع باحثةً عن رسول الله ﷺ تسأل عنه كل من لقيت قائلةً : ما فَعَل رسولُ الله ؟ فيقولون : أمامَكِ ، حتى وصلت إلى رسول الله ، واطمأنت على سلامته ، فأخَذَتْ بطَرَفِ ثَوْبه ، ثم قالت : « **كلّ مصيبة بعدك جَلَلٌ** »[1] وفي رواية ثانية : « لا أبالي إذا سلِمتَ مَنْ عَطِبَ »[2] .

☆ ☆ ☆

وما أريد أن أسترسل في ذكر محبة النساء أيضاً لرسول الله ﷺ ، فقد أفاضت كتب المحدثين والمؤرخين بما للنساء من مواقفَ مشرفة في حبّ رسول الله ﷺ ، والدفاع عنه والتمسك بدينه .

وقد أمر الله تعالى رسولَهُ أن يبايع النساءَ وَيَسْتَغْفِرَ لهن : ﴿ يا أَيُّها النَّبِيُّ

---

(١) أي هيئةٌ يَسيرَة .

(٢) الطبراني والبزار .

إذا جاءَك الْمُـؤمنـاتُ يُبـايِعْنَـكَ على أنْ لا يُشْرِكْنَ بـالله شَيْئـاً وَلا يَسْر
وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْـديهِنَّ وأَرْجُ
وَلا يَعْصِينَكَ في مَعْروفٍ فَبايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾[1]

فقـد جِئْنَ وبـايَعْنَ رسـول الله ﷺ كـلامـاً ، من غير أن تَمَسَّ يَـدُهُ يـ امرأة ، وقد جادَلْنَ رسول الله ﷺ مُسْتَفْهِماتٍ عَمّا بايعن عليـه ، بكل صرا في الرأي ، وحريـة في القول ، وكان رسـول الله ﷺ يستمـع إليهن ويجيـب أسئلتهن ، مرحباً بما يبدين من دعابةٍ أحياناً .

فقد ورد أنه حينما بايعهن على ألاَّ يقتلن أولادهن ، قـالت هنـد : ربَّين صغاراً ، وقتلتموهم كبـاراً يوم بـدر ، فـأنتم وهم أعلم ، وكانت مُنْتَقِبَـةً خوفـاً النبي ﷺ أن يعرفهـا لمـا صنعتـه بحَمْزة يـوم ( أحـد ) ، ولكن النبي عَ عرفها ، وقال : « أنت هند » ؟

وروي أنهـا لمـا قـالت : ... قتلتمـوهم كبـاراً ، ضحـك عمر بن الخطـ رضي الله عنه حتى اسْتَلْقَى .

كما سألته عما يحلّ لها من مال أبي سفيـان الـذي يبخل عليهـا وعلى أبنـا بالنفقة ، فقال لها ﷺ : « خُذي ما يكفيك بالمعروف » أو كما قال .

ثم قالت رضي الله عنها كلمتها الأخيرة ، المعبرة عن تمام الطـاعـة فقـالت ما جلسنا في مجلسنا هذا ، وفي أَنْفُسِنا أن نَعْصِيَكَ في شيء .



(١) الممتحنة ٦٠/١٢

وبعد ، فإن الحب هو الرابطة المتينة التي تربط القلوب بالمودة والإخاء ، والتي ترتفع عن الأغراض والعلل ، وعن المال والمتاع ، إنها ( هبة الله ) ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ... هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنينَ ، وأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما في الأَرْضِ جَميعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾[1] .

إن الحب هو ذلك الروح المستمد من روح الله والإسلام دين الله ، وهو دين الفطرة الذي يساير الفطرة أجمل مسايرة ، ويصل من ذلك إلى أجمل النتائج .

والإسلام هو الذي يجعل رباط المحبة ، هو الرباط الأول والأوثق في حياة المؤمن ، لتنتج عنه الطاعات والعبادات والقربات .



اللهم اجعلنا من أحبائك ، وأحبَّاء رسولك ﷺ ، وأفِضْ علينا من فضلك ، كما أسْبَغْتَ علينا من نعمك ، إنك جواد كريم .



وينتهي إلى هنا ما تيسر من ذكر هذه النماذج من حبّ الصحابة لنبيهم الكريم ، وتوقيرهم له ، وامتثالهم أمره ، وبذلك كانوا من الفائزين .

☆ ☆ ☆

(١) الأنفال ٨/٦٢ ـ ٦٣



# البابُ الخامِسُ

# حبّ المؤمنين بعضهم بعضاً

## محبّة المؤمنين

أما المحبة بين المؤمنين بعضهم بعضاً ، فتلك هي التي تصنع المعجزات وتؤلف القلوب ، وتقيم بينهم البناء المتين الذي لا يهدمه شيء ، من الصلة والتعاون والإخاء والمودة .

تلك هي التي تطلق البسمة من القلب ، فينشرح لها الصدر وتنفرج القسمات ، فيلقى الإنسان أخاه بثغر باسم ووجه طليق .

☆ ☆ ☆

وقد كثرت إرشادات النبي ﷺ في هذا الموضوع وتوجيهاته ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم أن الأمة التي لا يسودها الإخاء والمحبة والتعاون ، هي أمة مهدَّمَةُ الأركان مُنْهارَة البنيان ، بعيدة عن رحمة الله ومعونته ، لأن الله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

☆ ☆ ☆

وإني سأورد إن شاء الله طائفة من أحاديث رسولنا الكريم صلوات الله عليه وسلامه ، التي رسمت لنا الخطوط العريضة لسلوك سبيل المحبة والألفة والإخاء .

ـ من ذلك : ما رواه مسلم في صحيحه : عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ـ أو قال لجاره ـ ما يحب لنفسه » .

الخطاب في ( أحدكم ) يعمّ معناه كلَّ المسلمين ، في كل العصور ، وإن كان بصيغته خاصاً بالمشافَهين .

والأصرحُ في هذا العموم روايةُ : « لا يؤمن أحد » أو « عبدٌ » .

والمراد ( بالأخ ) مَنْ له أخُوَّةُ الإسلام مطلقاً ، كما صرحت به بعض الروايات : « حتى يحب لأخيه المسلم » . فالمسلمون على هذا مع اختلاف شعوبهم وقبائلهم وديارهم وألسنتهم وألوانهم هم أسْرَةٌ واحدة ﴿ إنَّما المُؤْمِنونَ إخْوَةٌ ﴾[1] .

وفي رواية للنَّسائي : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير » .

وهذا قيدٌ لا بدّ منه ، لأن من كان يحب لنفسه شيئاً من الشهواتِ المحرمةِ ، ليس من تمام إيمانه أن يحب للمسلمين مثل ذلك .

فصرحَ التّنْصيصُ على أن المراد بالمحبوب ، ما هو خيرٌ شرعاً ، والخير الشرعيُّ

---

(١) الحجرات ١٠/٤٩

يتنـاول الحظوظَ الأخرويـةَ كلَّها ، كالعلم النـافع والعمل الصـالح ، والعـاقبـة الحسنى ، ولا يتناول من حظوظِ الدنيـا إلا مـا كان منهـا غَيْرَ مَـذْمومٍ ، كَسَعَـةِ الرزقِ مِن الحلالِ ، ونجابةِ الأولادِ ، وطول العمرِ ، والسلامةِ مِنَ المكارِه وأشبـاهِ ذلك .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « مايحب لنفسـه » أي مثل مـا يحب لنفسـه ، فهو مفعولٌ به على التشبيه ، كما يُنْصَبُ المفعولُ المطلقُ على التشبيـه في قولـك : سرت سير زيد ، أي : مثل سيره .

☆ ☆ ☆

ـ ومنهـا : قـولـه ﷺ فيما رواه الترمـذي عن عبـد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما : « خير الأصحاب عند الله : خيرهم لصـاحبـه ، وخيرُ الجيران عنـد الله : خَيْرُهم لجاره » ورواه ابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحهما ، والحاكم ، وقـال : صحيح على شرط مسلم .

☆ ☆ ☆

ـ ومنهـا قـولــه ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنــه : « إن الله تعـالى يقول يوم القيـامـة : أين المتحـابُّون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلّي ، يوم لا ظلَّ إلا ظِلّي » .

ومعنى « بجلالي » أي من أجل عظمتي وطاعتي ، لا من أجل دنيا ومطامعَ فانية وأغراض شخصية .

ومعنى « في ظِلّي » أي ظـل من الحر والشمس ، ووهـج المـوقف ، وأنفـاسِ الخلق ، قاله : القاضي عياض ، ثم قال : وهذا قول الأكثرين .

وقال عيسى بن دينار : معناه كفُّهُ عن المكاره وإكرامُه ، وجعله في كَنَفِه وستره ، ومنه قولهم : السلطان ظل الله في الأرض .

☆ ☆ ☆

ـ ومنها : قوله ﷺ فيما أخرجه مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ « أن رجلاً زارَ أخاً لَهُ في قَريةٍ أخرى ، فأرصد الله على مَدْرَجَتِه ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نِعْمَةٍ تَرُبُّها ؟ قال : لا ، غير أنّي أحببته في الله عز وجل ، قال : فإني رسولُ الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببتَه فيهِ » .

☆ ☆ ☆

ومعنى « أرصد على مدرجته ملكاً » أن الله أمر هذا الملَك أن يقعد على طريقه يرقبه ، و « المدرجة » الطريق ، لأن الناس يدرجون عليها ، أي يمضون ويمشون .

ومعنى « نعمة تربُها » أي تقوم بإصلاحها وجئت بسببها ، قال الإمام النووي رحمه الله : وفي هذا الحديث فضل المحبة في الله ، وأنها سبب لحب الله تعالى العَبْدَ ، وفيه : فضيلة زيارة الصالحين والأصحاب ، وفيه : أن الآدميين قد يرون الملائكة .اهـ .

☆ ☆ ☆

ـ ومنها : قوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وأبو يعلى بإسناد جيد ، والحاكم وقال صحيح الإسناد ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ! اسمَعوا واعقِلوا ، واعلَموا أن لله عز وجل

عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ناسٌ من الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ؟ انعتهم لنا ، حَلِّهم لنا ( يعني صفهم لنا ، شَكِّلْهُم لنا ) ، فَسُرَّ وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي ، فقال : هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتَصافَوْا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها ، فيجعل وجوهَهُم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[1] .

☆ ☆ ☆

وعن أبي إدريس الْخَوْلاني قال : « دخلتُ مسجد دمشق فإذا فتىً براق الثَّنايا ، وإذا الناس معه ، فإذا اختلفوا في شيء أسْنَدوهُ إليه ، وصدروا عن رأيه ، فسألت عَنْهُ فقيل : هذا معاذ بن جبل ، فلما كان من الغد هجّرت ، فوجدته قد سبقني بالتهجير ، ووجدته يصلي ، فانتظرته حتى قضى صلاته ، ثم جئتُهُ من قِبَلِ وجهه فسلمت عليه ، ثم قلت له : والله إني لأحبك لله ، فقال : آلله ؟ فقلت : آلله ، فقال : آلله ؟ فقلت : آلله . فأخذ بحبوة ردائي ، فجذبني إليه ، فقال : أبْشِرْ ، فإني سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتي للمتحابين فِيَّ ، ولِلْمُتَجالِسينَ فِيَّ ، ولِلْمُتَزاوِرينَ فِيَّ ، وللمتباذلين فِيَّ »[2] .

☆ ☆ ☆

(١) من الترغيب والترهيب للمنذري ٤٨/٤

(٢) الترغيب ٤٦/٤

وأخرج أبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أحبَّ لله ، وأبْغَضَ لله ، وأعْطى لله ، ومَنَع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

☆ ☆ ☆

يلاحظ في الحديث أن معمولَ الحب ، والبغض هنا غير مذكور ، ليعم الناسَ والأشياء .

والإعطاء والمنع من ثمرات الحب والبغض ، لأن القلب هو أمير البدن ، يصلح بصلاحه ، ويفسد بفساده ، فمن كان حُبُّه لله وبغضه لله ، وكان إعطاؤه لله ومنعه لله ، فلا يعطي أحداً طمعاً في مكافأته أو حباً في مَحْمَدَتِهِ ، أو رغبة في حسن الأحْدوثَةِ بين الناس ، ولا يمنع أحداً لعداوة دنيوية ، ولا حباً في المال ، ولا حرصاً عليه ، بل يمنع من يمنعه وقوفاً عند أمر الله ، ومثله الإعطاء ، فيكون بعمله هذا قد استكمل الإيمان ، وأصبح مؤمناً حقاً ، عاملاً بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ لا شَريكَ لَهُ ﴾[1] .

☆ ☆ ☆

ولما كانت هذه المحبة تقتضي أن ينصر أخاه ويعينه في حوائج الدنيا ، فضلاً عن كفه عن ظلمه وأذاه ، بيّن ذلك الرسول الكريم ﷺ بقوله : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يَبِعْ بعضُكم على بيع بعضٍ ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يَظْلِمُه ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ، التقوى هَهُنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ـ يشير إلى صدره ـ بِحَسْبِ امرئٍ

---

(١) الأنعام ١٦٢/٦

من الشرّ أن يَحْقِرَ أخـاه المسلم ، كلُّ المسلمِ على المسلم حرامٌ ، دَمُـهُ ومـالُـهُ وعرضُهُ »[1] .

☆ ☆ ☆

وما من شك أن هذه الخصال ، التي رسمها رسول الله ﷺ في هـذا الحـديث الصحيح ، تدعم المحبة وتؤكدها ، وتكون سبباً في استمرارها ودوامها .

☆ ☆ ☆

ومن هـذا القَبيـل أيضـاً مـا رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال : « حَـقُّ المسلم على المسلم ستٌّ ، قيـل : مـا هن يـا رسول الله ؟ قال : إذا لَقيتَهُ فسلِّم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا اسْتَنْصَحَـكَ فـانصح لـه ، وإذا عَطَسَ فَحَمِـدَ الله فَشَمِّتْـه ، وإذا مرض فَعُـدْهُ ، وإذا مـات فَاتْبَعْهُ » .

☆ ☆ ☆

وإن من علائم هذه المحبة أن تُظْهِرَ اهتماماً بالغاً بشأن أخيـك ، وتجتهـد في تحقيق ما يريد ، وما يسعى في تحصيله ؛ فإذا اجتهدت في ذلك ، فقـد تَقَرَّبْتَ إلى الله تعالى بأزكى الطاعات وأعظم القربات .

ولا أدلّ على ذلك مما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه كان معتكفاً في مسجـد رسـول الله ﷺ ، فـأتـاه رجـلٌ فسلَّم عليـه ثم جَلَسَ ، فقـال لـه ابن عبـاس : يـا فـلان ! أراك مُكْتَئِبـاً حـزينـاً ، قـال : نعم ! يـا ابن عم رسول الله ، لفلان عليَّ حقُّ وَلاءٍ ، وحُرْمَةِ صاحب هذا القبر ما أَقْدِرُ عليه .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، مع اختلاف في بعض الألفاظ .

قال ابن عباس : ألا أكلمه فيك ؟ قال : إن أحببت ، قال : فانْتَعَل ابن عباس ثم خرج من المسجد ، فقال له الرجل : أنَسيتَ ما كنت فيه ؟ قال : لا ولكني سمعتُ صاحب هذا القَبْرِ ، والعَهْدُ به قريب - فدمعت عيناه - وهو يقول : « من مشى في حاجة أخيه وبَلَغَ فيها ، كان خَيْراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جَعَلَ الله بَيْنَهُ وبين النارِ ثلاثةَ خَنادِقَ ، كلٌّ خَنْدَقٍ أبعدُ مما بين الخافقين ! »[1] .

وماذا يُعَلِّقُ الإنسان على هذا الحديث العظيم ؟ إنه دعوة صريحةٌ واضحة لإرساء قواعد المحبة ، وتقدير الإسلام لعلائق الإخاء الجميل ، وهو في الوقت ذاته ، يصور مدى التقدير العالي لضروب الخدمات العامة التي يبذلها المسلمون لبعضهم ، فهذا ابن عباس يَدَعُ اعتكافه في مسجد رسول الله ﷺ ، وهو يعلم دَرَجَتَهُ الرفيعة ، ليُقَدِّم خدمة لأخ يطلب العَوْنَ .

☆ ☆ ☆

أخي القارئ الكريم ، لقد علمنا رسول الله ﷺ أن نُحِبَّ ، وبين لنا كيف نُحِبُّ ، ورسم لنا الوسائل الناجعة لدوام المحبة وترسيخها ، وهو الذي علمنا أن ( نبتسم ) ، لأن الابتسامة تُعَبِّر عن المحبة الكامنة في القلب ، أليس هو القائِلَ : « وتبسمك في وجه أخيك صدقة » ؟ أليس هو القائِلَ : « إنكم لا تَسَعونَ الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » ؟

أليس هو الذي علمنا أن يكون حبنا لله وفي الله ؟

هذا الحب الخالص هو الذي يطلق البَسْمةَ من القلب ، فتنفرج بها الشفتان ، فَتَلْقى أخاك بوجه طليق مشرق .

---

(١) رواه البيهقي .

إن المال لا يكفي لانتزاع محبة الناس واستمالة قلوبهم ، إن ( البسمة ) تَفْعَل ما لا يَفْعَل المال ، إن لها القدرة على الدخول إلى شغاف القلب ، والاستيلاء على المشاعر .

لقد دعاك الرسول الناصح ﷺ إلى الابتسام ، لتمتلك المحبة والمودة ، إن هناك أناساً لا يبتسمون أبداً ، ولا تنفرج أساريرَهم ، وهم يلقون غيرهم من الناس ، أولئك لم يتعودوا الخير ، ولم يأخذوا بتوجيهات المربي الكبير سيدنا رسول الله ﷺ .

إن نبينا العظيم خيرُ مُرَبٍّ للإنسانية ، وهو قد علم أن رباط المحبة ، هو أمتن الروابط وأوثقها في حياة البشرية ، وهو الذي أدرك بفطرته الملتقية مع فطرة الكون الأعظم ، وبما أدبه ربه فأحسن تأديبه أن المحبة والرحمة والمودة والإخاء هي وحدها التي يمكن أن يقوم عليها البناء القوي المتماسك ، لذلك دعا إلى ( الحب ) الذي يجلو القلوب ، فتفيض بالحب ورسم الوسيلة لكي تُحِبَّ وتُحَبَّ ، فطلب إليك أن تلقى أخاك بوجه طليق وأن ( تَبْتَسِمَ ) .

إن هذه الابتسامة على الوجه الطلق لَتَعْمَلُ عَمَلَ السحر .

جَرِّبْ أن تلقى الناس بوجْهٍ طَلْقٍ ، وعلى فمك ابتسامةٌ مشرقةٌ ، وسوف لا تندم على التجربة قط .

إن هذه ( البسمة ) باستطاعتها أن تَفْتَحَ لَكَ مَغاليقَ النفوس ، وتَنْفُذَ إلى الأعماق ، فتنفذ إلى القلب ، فتكون رابطة الجاذبية .

# الخاتمة

أخي القارئ الكريم ، إذا نحن لم يُسْعِدْنا الحظّ برؤية رسول الله ﷺ كما سَعِد بها أصحابه الكرام ، فلن تفوتنا محبتُهُ ومَحَبَّةُ أصحابه ، ومحبةُ كلِّ الذين يحبُّهم .

وإذا لم يسعدنا الحظ بالنظر إلى شخصه الكريم ، فلن يفوتنا أن ننظر إلى آثاره التي بين أيدينا ، والتي سُجِّلَتْ كلُّها مشتملةً على أقواله وأفعاله وتوجيهاته ، وإرشاداته ونصائحه .

إننا سعداء بالاطلاع على أحاديثه الموجهةِ لِنُنْشِدَ مع القائل :

لم أسْعَ في طلب الحديث لسُمْعَةٍ أو لاجْتِماعِ قَديمِهِ وحَديثِهِ
لكن إذا فاتَ المحبَّ لِقاءُ مَنْ يَهْوى تَعَلَّلَ باسْتِماعِ حَديثِهِ

ولِنَقولَ :

يا عينُ إنْ بَعُدَ الحبيبُ ودارُهُ ونأتْ مرابِعُه وشَطَّ مَزارُهُ
فَلَقَدْ ظَفِرت من الزمان بطائلٍ إن لم تَرَيْهِ فهذه آثارُهُ

☆ ☆ ☆

أما بعد فهذا ما يسر المولى عز وجل من الكتابة في هذا الموضوع ، فإن كنت وفَّيْتُهُ حَقَّه فذلك فضل من الله تعالى ومِنَّة ، وإن كنت قصرت أو أغفلت أو أخطأت ، فذلك من طبيعة الإنسان المبنية على الخطأ والنسيان .

ولكني أتوجه بالشكر والامتنان وخالص الـدعوات ، لكل من يرشـدني إلى خطأ ، ويدلني على تقصير ، وينبهني إلى عيب .

وفي الختام ، نتوجه إلى العلي القدير ، أن يجعلنـا من أحبـابـه المحبين ، وأن يحشرنا تحت لواء سيد المرسلين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

**دمشق ـ أحمد نصيب المحاميد**

# المراجع

- القرآن الكريم .
- تفصيل آيات القرآن الكريم ، لجول لا بوم .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .
- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن .
- تفسير القاسمي : محاسن التأويل .
- تفسير الصاوي على الجلالين .
- الظلال لسيد قطب .
- بيان المعاني تفسير للسيد عبد القادر ملا حويش .
- تفسير الكشاف للزمخشري .
- تفسير المراغي .
- تفسير المنار للشيخ رشيد رضا .
- تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن للشيخ محمد عبده .
- صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري وشروحه .
- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج بشرح النووي .
- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي .
- الأخلاق الدينية ، والحكم الشرعية للجزيري .
- سنن الترمذي .
- سنن النسائي .
- سنن ابن ماجه .

ـ سنن أبي داود .
ـ سنن الدارمي .
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل .
ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، للإمام مجد الدين أبي السعادات بن الأثير .
ـ الترغيب والترهيب للمنذري .
ـ نبل الأوطار للشوكاني .
ـ كشف الخفا ، ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني .
ـ الطبقات لابن سعد .
ـ حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوي .
ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير .
ـ الإصابة في معرفة الصحابة للعسقلاني .
ـ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني .
ـ سيرة ابن هشام عبد الملك بن هشام .
ـ حياة محمد ﷺ للدكتور حسين هيكل .
ـ زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم .
ـ تاريخ الطبري .
ـ تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي .
ـ المعارف لابن قتيبة الدينوري .
ـ الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل .
ـ الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل .
ـ في منزل الوحي للدكتور هيكل .
ـ الفاروق القائد لمحمود شيت خطاب .
ـ خلق المسلم لمحمد الغزالي .
ـ إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الغزالي .
ـ من توجيهات الإسلام لشلتوت .

- الحياة الروحية في الإسلام للدكتور مصطفى حلمي .
- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك .
- قبسات من الرسول لمحمد قطب .
- المختار للدكتور محمد عبد الله دراز .
- مجلة الرسالة للزيات - مجلة نور الإسلام - مجلة الأزهر .
- تحفة السفرة إلى حضرة البررة للشيخ الأكبر .
وهناك مراجع أخرى ذكرت في حينها على هوامش الكتاب .



# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٥ |
| الباعث على هذا التأليف | ٦ |
| **الباب الأول** : حب الله تعالى للعبد | ١٣ |
| الفصل الأول : المقاتلون في سبيله | ١٨ |
| الفصل الثاني : المحسنون | ٢١ |
| الفصل الثالث : التوابون | ٣٥ |
| الفصل الرابع : المتطهرون | ٦٤ |
| الفصل الخامس : المتقون | ٧٠ |
| الفصل السادس : الصابرون | ٧٤ |
| الفصل السابع : المتوكلون | ٩٢ |
| الفصل الثامن : المقسطون | ١٠٠ |
| **الباب الثاني** : حب العبد لله تعالى | ١١٣ |
| الفصل الأول : في مكانة المحبة ودليلها | ١١٥ |
| الفصل الثاني : لماذا نحب الله تعالى ؟ | ١١٨ |
| الفضل الثالث : في مستند الصوفية المحبين | ١٢٨ |
| **الباب الثالث** : حب رسول الله ﷺ | ١٤٣ |
| الفصل الأول : محبة النبي ﷺ | ١٤٥ |
| الفصل الثاني : لماذا نحب رسول الله ﷺ | ١٥٤ |
| الفصل الثالث : نبذة عن أهل الصُّفة | ١٦٣ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| **الباب الرابع : حب أصحاب محمد محمّداً ﷺ** | ١٦٧ |
| الفصل الأول : في التعريف بأصحابه ﷺ | ١٦٩ |
| الفصل الثاني : في حبّ أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه | ١٧٣ |
| الفصل الثالث : في حبّ عمر رضي الله تعالى عنه | ١٨٠ |
| الفصل الرابع : في حبّ عثمان رضي الله تعالى عنه | ١٨٥ |
| الفصل الخامس : في حبّ علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه | ١٨٨ |
| الفصل السادس : في حبّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم للنبي ﷺ | ١٩٥ |
| **الباب الخامس : حب المؤمنين بعضهم بعضاً** | ٢١٧ |
| الخاتمة | ٢٢٦ |
| المراجع | ٢٢٨ |
| الفهرس | ٢٣١ |



# LOVE

## Between The Servant and The Lord

## Al Ḥubb Bayn al ʻAbd wa al Rabb

by: Aḥmad Naṣīb al Maḥāmīd




هل الإسلام دين جافٍ خِلْوٍ من الحب بين الله والعباد ؟ وهل صلة المسلمين بربّهم هي صلة إذعانٍ لإرادة الله وقهر ، لا صلة قداسة وحب ؟

إن لفظ ( الحبّ ) تردّد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، على أساليب مختلفة ، منها ما هو بجانب الرّب لعباده ، ومنها ما هو بجانب العباد للرّب ، ومنها ما يشير إلى محبّة الرسول ﷺ ، ومنها ما يرشد إلى محبّة النّاس بعضهم بعضاً .

حبُّ الله تعالى للعبد ، الّذي أثبته لأصحاب الأعمال العظيمة ، والّتي تشمل الخير للإنسانيّة كلّها ، وحبُّ العبد لله الّذي يُقرّبه من رحمته وعفوه ، وحبُّ النّبيّ الكريم ﷺ ، وحبُّ المؤمنين لبعضهم ، هذه موضوعات هامة ، ونقاط جديرة بالبحث والتّقصّي للحقائق ، وإيراد الأمثلة الواقعيّة على ذلك .

حول هذه النقاط ، جعل المؤلّف موضوع كتابه : ( الحب بين العبد والرّب ) ، حيث أورد النّصوص الموثّقة الصّادقة ، حول كلّ نقطة من نقاط البحث .

Dār Al Fikr
P.O.Box: 962
Tel. : 2211166 & 2239717
Fax : 2239716
Damascus, Syria.